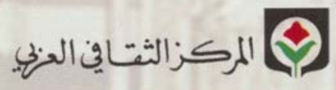
موسى عبادي

الملكة والخطّاط

يهود دمشق كما عرفتهم





المركز الثقافي العربي

موسى عبادي

الملكة والخطّاط

يهود دمشق كما عرفتهم

ترجمة

مايا الخوري وشريف كيوان

المركز الثقافي العربي

الكتاب

الملكة والخطّاط

المؤلف

موسى عبادي

ترجمة

مايا الخوري وشريف كيوان

الطبعة

الأولى، 2011

عدد الصفحات: 184

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9953-68-481-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ 307651 522

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ــ لبنان

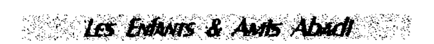
ص.ب.: 113 ـ 5158 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

cca_casa_bey@yahoo.com



ARAB CULTUR CENTER
HAMRA JEAN D'ARC STREET
MAKDISSI BUILDING
PB 113/6158
LIBAN / BEYROUTH

A l'attention de M. HASSAN YAGHI

Paris, le 6 mai 2010

Monsieur,

Suite à la demande de M. CHARIF KINAN, nous vous confirmons la libre disposition des droits de traduction en langue arabe de l'ouvrage de MOUSSA ABADI,

LA REINE ET LE CALLIGRAPHE

Nous vous remercions vivement de l'intérêt que vous portez à l'œuvre de Moussa Abadi, dont notre association est mandataire auprès des éditeurs.

Nous vous prions de croire, Monsieur, à nos meilleurs sentiments.

« Les Enfants & Amis Abadi »

دولة دمشق

ETAT DE DAMAS

تذكرة النفوس

CARTE D'IDENTITÉ

(Etat Civil)

ANJAK de Damas — لواء شام

Nom et prénom: Moïse Effendi — الاسم والشهرة: موسى أفندي

Prénom du père: Nessime Abadi — اسم الأب: نسيم عبادي

Prénom de la mère: Faridé Liscidié — اسم الأم

Date et Lieu de naissance: 1907 Damas — تاريخ ومحل الولادة: شام ١٩٠٧

Lettré ou

Marié ou cé.: Célibataire — متأهل: عازب

Domicile (1) — محل الإقامة

Sanjak: Damas — لواء: شام

Caza — قضاء

No. de domicile: 40 — رقم المسكن

No. de registre: 252 — رقم السجل

(1) pr. les villes indiquer la rue et le No. — (١) يذكر في المدن المحلة والشارع والرقم

SIGNALEMENT — الأشكال

Taille	Moyenne	القامة: متوسط
Yeux	Châtains	العينان
Cheveux	Châtains	الشعر
Nez	Ordinaire	الأنف
Sourcils	Noirs	الحاجبان
Visage	Ovale	الوجه
Barbe, Moustache	Rasée	اللحية والشارب
Signes particuliers	Néant	علامات فارقة

Nous, Gouvernement de l'Etat de Damas certifions que M. Moïse ben Nessim est syrien; en foi de quoi nous lui avons délivré la présente carte d'identité le 15/10/1928

نحن حكومة دولة دمشق نثبت ان موسى افندي بن نسيم عبادي هو سوري والشعارة بذلك اعطيت له هذه التذكرة في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٧

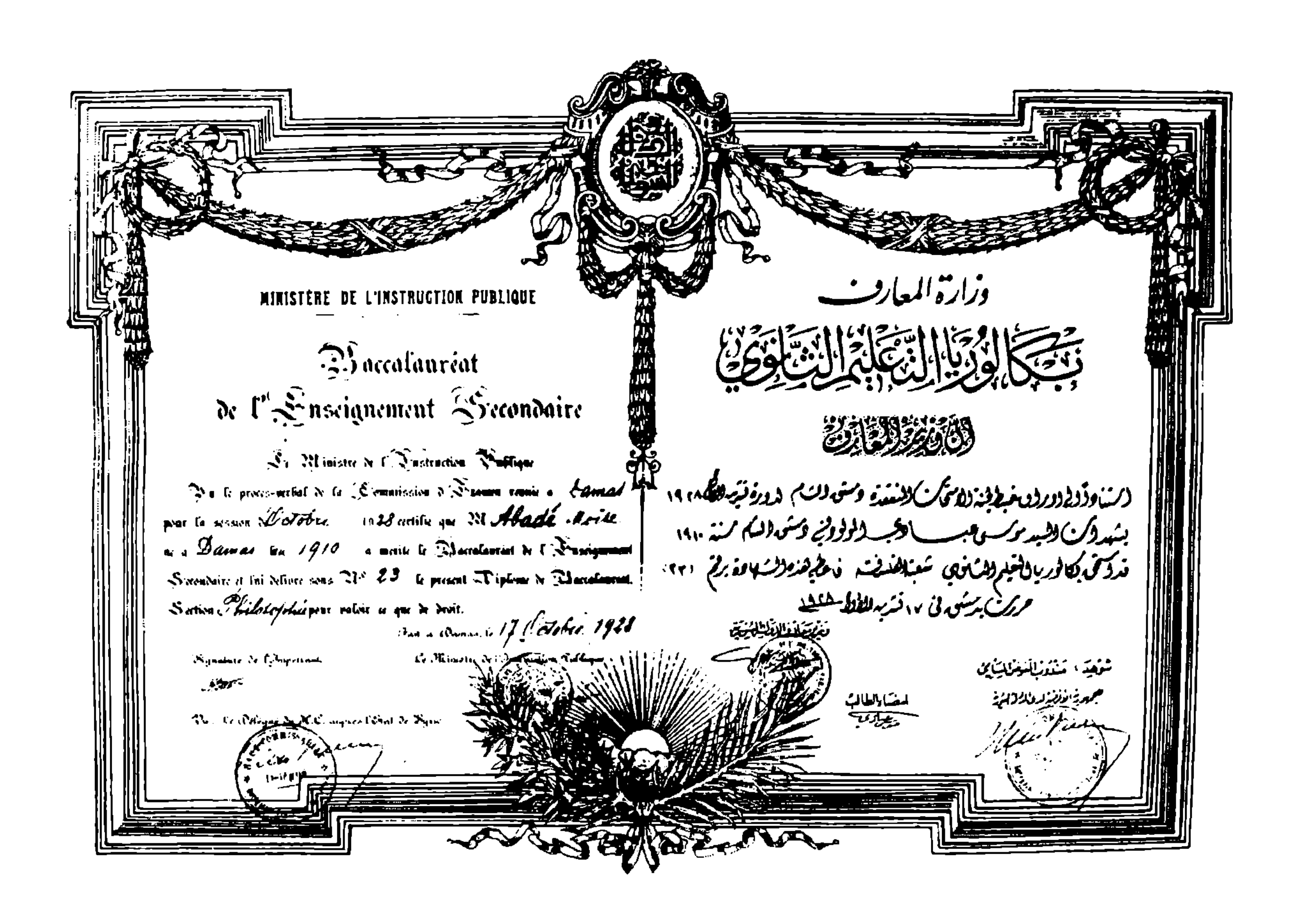
le chef du bureau de l'Etat civil — مدير النفوس

le Secrétaire — الكاتب

Prix : 20 P.S.

ثمن التذكرة (٢٠) قرشاً سورياً

تذكرة هوية موسى عبادي



وزارة المعارف

بكالوريا التعليم الثانوي

ان وزير المعارف

استنادا الى اوراق ضبط لجنة الامتحان المنعقدة في دمشق الشام في دورة تشرين الاول ١٩٢٨

يشهد ان السيد موسى عبادي المولود في دمشق الشام سنة ١٩١٠

قد استحق بكالوريا التعليم الثانوي شعبة الفلسفة فاعطيت له هذه الشهادة برقم (٢٣)

حررت بدمشق في ١٧ تشرين الاول ١٩٢٨

امضاء الطالب

MINISTÈRE DE L'INSTRUCTION PUBLIQUE

Baccalauréat

de l'Enseignement Secondaire

Le Ministre de l'Instruction Publique

Vu le procès-verbal de la Commission d'Examen réunie à Damas pour la session Octobre 1928 certifie que M. Abadé Moïse né à Damas l'an 1910 a mérité le Baccalauréat de l'Enseignement Secondaire et lui délivre sous N° 23 le présent Diplôme de Baccalauréat. Section Philosophie pour valoir ce que de droit.

Fait à Damas, le 17 Octobre 1928

Signature de l'Impétrant

Le Ministre de l'Instruction Publique

الإهداء

إلى أوديت... مجدداً

إلى ملكتي

وخطّاطي

مقدمة المترجم

ينتمي كتاب «الملكة والخطاط. يهود دمشق كما عرفتهم» إلى أدب القصة الأوروبية بيد أنه يسعى لتوثيق الواقع بلغة خاصة تنبض بروح الكركوزاتي الدمشقي. صدر الكتاب بالفرنسية وملؤه تعابير مستعارة من العربية، وحاز لدى صدوره على جائزة الأكاديمية الفرنسية للقصة. كان ذلك عام 1993، أي بعد سنة من مغادرة يهود سورية بلدهم بموجب اتفاق أُبرم في واشنطن على هامش مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية. لكن يبدو أن المؤلف (موسى عبادي) لم ينظر لهذا الاتفاق كما نظرت إليه بعض وسائل الإعلام الغربية التي قدمت يهود دمشق آنذاك كرهائن يعيشون في «غيتو» حالمين بـ«أرض الميعاد الإسرائيلية». فهو وإن يؤكد التزامه باليهودية، يضع هذا الالتزام في إطار انتمائه لدمشق وللغته العربية الأم.

والكاتب (موسى عبادي) ابن حارة اليهود الدمشقية. ولد فيها عام 1910 ونشأ في كنف عائلة مرموقة عميدها رئيس مجمع الطائفة. تعلّم كغيره من أبناء الأعيان خلال الانتداب الفرنسي في مدرسة الآباء العازريين ليتخرج منها في العام 1929 حائزاً على منحة للدراسة في جامعة السوربون. سافر إلى فرنسة ودرس التاريخ والمسرح ثم عمل بالتمثيل والنقد المسرحي حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. انخرط في صفوف المقاومة الفرنسية تحت اسم

(مسيو مارسيل) وأسس وزوجته (أوديت عبادي)[1] شبكة سريّة لإنقاذ الأطفال المُهدَّدِين بالترحيل إلى معسكرات الاعتقال النازية. عاد بعد انتهاء الحرب إلى المسرح وشكَّل عدة فرق للتمثيل، كما شغل مناصب هامة في مديرية المسارح الفرنسية. وبرز كناقد ملتزم بالدفاع عن المسرح الشعبي من خلال برنامج استمر أكثر من عشرين عاماً في إذاعة فرنسة الدولية[2]. والجدير بالذكر أن (موسى عبادي) انتظر حتى عشية وفاته في باريس عام 1997 ليكشف النقاب عن ماضيه النضالي وتأسيسه لشبكة مقاومة دخلت منذئذ التاريخ.

يقدم (موسى عبادي) نفسه في مطلع كتابه كدمشقي من سلالة «القبيلة الثالثة عشرة لبني إسرائيل»، في حين تنصّ الكتب السماوية توراة وإنجيلاً وقرآن على أنّ القبائل أو الأسباط اليهودية اثنا عشرة أسسها أبناء النبي يعقوب المُلقّب إسرائيل، وفي حين تدّعي الدولة التي استحوذت على اسم هذا النبي أنّها الموطن الأول والأخير للقبائل اليهودية موحدةً. ويبدو في هذا إشارة إلى خلاف تاريخي قام

---

(1) أوديت عبادي، زوجة موسى، طبيبة فرنسية يهودية اعتُقِلت لمدة سنة في معسكر (بيرغن بيلزن) النازي. رفضت دعوة الحركة الصهيونية داخل المعسكر بالتوجه إلى فلسطين وآثرت العودة إلى بلدها فرنسة لدى انتهاء الحرب رغم أنها فقدت معظم أفراد عائلتها، كما روت في مذكراتها الصادرة في باريس عام 1995. أقامت بلدية نيس الفرنسية نصباً تذكارياً يحمل اسم موسى وأوديت عبادي في الحي الذي سكناه في بداية الحرب. كما أطلقت بلدية باريس على احدى ساحاتها اسم موسى وأوديت عبادي.

(2) يتناول موسى عبادي تجربته كناقد مسرحي في كتابه: La comédie du théâtre, Julliard, 1985

بين يهود دمشق والحركة الصهيونية التي نشأت في أوساط اليهودية الأوروبية[1]. فدمشق تكاد تكون المدينة الوحيدة في العالم التي استوطنها اليهود قرابة الثلاث آلاف سنة بشكل متواصل دون التعرض لاضطهاد جماعي يقارن بما شهدته المدن الأوروبية. فقد كانوا جزءاً من المدينة العربية، مثلهم مثل المسيحيين، يعيشون فيها متمتعين بشيء من الاستقلالية فيما يتعلق بالشؤون الدينية. أما يهود أوروبة، فكانوا يعيشون عموماً في غيتو على هامش المدينة. والغيتو كان أشبه بالمعتقل لدى نشأته في مدينة البندقية في القرن السادس عشر وغدا بعدئذ رمزاً لما تعرّض له اليهود من عزلة واضطهاد منذ محاكم التفتيش الكنسيّة حتى المحرقة النازية. ومن هذا الغيتو الأوروبي انطلقت الحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر داعية إلى إقامة دولة خاصة باليهود، أي غيتو ذي سيادة، في الأرجنتين أو مدغشقر أو أوغندة أو فلسطين.

من جهته، يركّز الكاتب على انخراط يهود حارته في البيئة الدمشقية من خلال قصص تدور أحداثها بين نهاية الحكم العثماني وبداية الانتداب الفرنسي. والحارة هي محور جميع القصص إن لم تكن الشخصية الرئيسية فيها. في البداية تبدو عرضة لمطامع خارجية تتستر بالدين. فبعد زيارة بارونة من آل روتشيلد، العائلة الألمانية

---

(1) يشير المؤرخون الإسرائيليون إلى أن يهود دمشق كانوا من أكثر اليهود العرب تحفظاً على المشروع الصهيوني المهدِّد لمصالحهم. انظر مثلاً Menahem Nahum, Israël. Tensions et discriminations communautaires, Harmattan, 1986

التي اشتهرت بدعمها المادي للمشروع الصهيوني، تأتي «ملكة» مشبوهة اسمها (صالحة ستيتية) لتحاول كسب ثقة أهل الحارة وإقناعهم بشتى الوسائل بوجود «مملكتها الخرافية». ثم تمضي الملكة المزعومة وتبقى الحارة مخلصة لانتمائها الذي يجسده الخطّاط يعقوب بعيشه إلى جانب جيرانه «الغرباء». والغرباء في هذه القصة هم كناية عن الفلسطينيين الذين احتل الجيش الصهيوني أرضهم في العام 1948 وأقاموا لدى وصولهم دمشق في حارة اليهود.

يموت الخطّاط يعقوب، كاتب الحارة وضميرها، بعد أن يبارك (موسى عبادي) الذي يمضي بقصصه وقد بلغ الثمانين وباتت ذاكرته محاصرة بصور النزاع العربي الإسرائيلي، كما في قصة ***حكاية بدو***. فيفلت من هذا الحصار مستحضراً لغة الكركوزاتي الذي طالما تردد صغيراً على عروضه حيث بدأ ولعه بفنون المسرح[1]. ويبعث حارته من الذاكرة أو يُعيد تركيب ذاكرتها من خلال شخصيات عرفها في العشرين سنة الأولى من حياته[2]، مثل رفّول الطفران الذي صار «أميركاني عن حق وحقيق»، والصيرفي لارنادو الذي أُنتخب ممثلاً للطائفة اليهودية في البرلمان، وأبو سارة «اليهودي التائه» الذي يشحذ للمحتاجين، وصادق الحّلاق الذي يُعاين أطياز الدجاج،

---

(1) يعترف موسى عبادي بدَيْنِه للكركوزاتي في «سهراتي عند كركوز»، إحدى قصص مجموعته القصصية الثانية «شمعون الكذاب» التي نشرتها زوجته بعد وفاته عام 1997.

(2) يتطرّق موسى عبادي لهذه الذاكرة في مخطوطة بعنوان «نور عيوني» يروي فيها يوميات السنة الأخيرة من حياته وهو يفقد بصره. وبعد وفاته أُودعت زوجته أوديت هذه المخطوطة في المكتبة الوطنية الفرنسيّة.

وروزينه التي صارت «شرموطه»، وحمرا العارف بلغة النجوم، والحاخام حسّون الذي ما فتئ يُبشّر بقدوم المسيح، وراشيل الكادحة التي تصرخ ثورتها وسط الكنيس سائلة الله «لماذا تعذب هكذا أكثر مخلوقاتك بؤساً قبل أن تناديهم إليك؟»

تتوالى هذه الشخصيات وغيرها فتضحكنا وتبكينا كما في مسرح الكركوزاتي أو خيال الظل الذي كان رائجاً في مقاهي دمشق، وقد قيل:

رأيت خيال الظل أكبر عبرة   لمن كان في علم الحقيقة راقي
شخوص وأشكال تمرُّ وتنقضي   ترى الكل يفنى والمُحرِّك باقي[1]

والمحرّك هنا هو سؤال يتعلق بمكانة اليهودي داخل المدينة، أو كيف يمكن لليهودي أن يمارس معتقداته وطقوس دينه دون أن يكون معزولاً عن محيطه أو منبوذاً منه. وهو سؤال شغل حيزاً هاماً من الفكر السياسي الأوروبي، بدءاً من الثورة الفرنسية وإعلانها «تحرر اليهود» بإخراجهم من الغيتو ومنحهم حق المواطنة، حتى النازية التي أرجعت المواطنين من أصل يهودي إلى الغيتو وقادتهم منه إلى المحرقة، مروراً بالشيوعية وكتاب مؤسسها حول «المسألة اليهودية». وفي كتاب يحمل العنوان نفسه، أكد جان بول سارتر على دور الاضطهاد الأوروبي في تحديد الهوية اليهودية المعاصرة. من جهتها، دعت الصهيونية إلى «حل نهائي للمسألة اليهودية» يقضي باقتلاع يهود العالم من بيئاتهم المختلفة وجمعهم في دولة غيتو

(1) انظر فصل «كركوزاتي» في «قاموس الصناعات الشامية»، للقاسمي والعظم، دار طلاس، دمشق، 1988، ص 384.

خاصة بهم، واستخدمت شتى الوسائل لإلغاء أي تواجد يهودي في المدينة العربية من شأنه أن يُشكّك بضرورة أو شرعية هكذا دولة .

يعتمد (موسى عبادي) في تناوله هذه المسألة على مرجعية مغايرة يجسدّها (موسى بن ميمون) الذي يبدو مثالاً يُحتذى في قصة تحمل عنوان ***عندما ترى الملك***. فهذا الفيلسوف الأندلسي، الذي ينتمي إلى سلالة مفكرين ومترجمين يهود ساهموا في بناء الحضارة العربية الإسلامية، ناقش التوراة استناداً إلى فلسفة الفارابي وأرسطو[1] مثلما فعل بالقرآن مواطنه ومجايله ابن رشد، وخصوصاً في كتابه ***دلالة الحائرين*** حيث جعل الله ملكاً لا يدخل قصره إلا من بلغ أعلى درجات العلم[2]. والجدير بالذكر أن بن ميمون، بصفته عالم دين ورئيساً للطائفة اليهودية في مصر، أجاز لليهود الصلاة في الجامع مؤكداً بذلك على ضرورة إيجاد قواسم مشتركة مع البيئة الإسلامية[3]. وهذا يتطابق والمفهوم العقلاني للدين الذي سعى (موسى عبادي) لإبرازه، إذ افتتح قصصه بحائك يُصلي من أجل «خبز أكثر وظلم أقل»، ليختتمها بإسكافي لا يفهم معنى الصلوات أو المزامير التي يرددها لكنه متأكد أن الله يفهمه. فالدين هنا ليس

---

(1) انظر إسرائيل ولفنسون، «موسى بن ميمون حياته ومصنفاته»، القاهرة، 1936. في مقدمته لهذا الكتاب يؤكد الشيخ مصطفى عبد الرزاق على وجوب اعتبار موسى بن ميمون من الفلاسفة المسلمين لأنّ مناقشته نصوص التوراة إنما تصدر عن فكر وثقافة إسلامية.

(2) «دلالة الحائرين»، القاهرة، 1980، ص716.

(3) يرى الطبيب اليهودي المصري الأصل جاك حسّون في كتابه «يهود النيل» الصادر بالفرنسية عام 1981 أن بصمة الإسلام واضحة في طقوس يهود مصر.

جملة ماورائيات وباطنيات تتعارض والمواطنة، وإنما هو شعور بـ«وحدة الحال» مع الناس والبيئة ناتج عن الإيمان بأن جميع ركاب سفينة نوح سيلقون المصير نفسه، كما يقول الجد لحفيده في قصة *المسيح سياتي غداً*. والدين ليس كتاباً يخص قبيلة دون غيرها ويمنحها حقوقَ متميزة، بل هو عقد ضمني يصوغه جميع أهل المدينة، كلّ بلغة حارته. ففي *حكاية بدو*، يجد يهودي ورع في الوصايا التي نقلها موسى لشعبه في الصحراء ما يقرّبه من أحد شيوخ بادية الشام، فيرتبطان معاً بشراكة تتجاوز حدود الدين والحارة.

تبدو الحارة في النهاية فضاءً يتيح لسكانه الاستغراق بدينهم الخاص دون أن يتعارض ذلك مع الانتماء العام أو المواطنة. فالحارة هي «العالم الصغير حيث كل شيء ممكن وكل الناس على حق، وحيث يُقال دوماً، وعلى السواء، للأغنياء والفقراء، للمتخمين والجوعى، صباح الخير أو مساء النور» (قصة *الرحيل*). وكل من يُقدّر هذا العالم حق قدره، يستطيع أن يفهم العالم الكبير ويعيش فيه بسلام. ولعلّ هذا هو سرّ نجاح رفّول ابن الحارة الطفران الذي ظل مخلصاً للحارة بعدما غادرها إلى الأرجنتين وأصبح ثرياً. وشخصية رفّول هذه تكاد تصلح أن تكون مثالاً للطائفة اليهودية ذات الأصل الشامي التي استوطنت الأمريكيتين منذ بداية القرن العشرين ووُصِفَت بـ«الطائفة الأممية» لأنها استطاعت التوفيق بين الانخراط في الاقتصاد العالمي والحفاظ على أخلاقية الحارة، وذلك بشكل مستقل عن بقية الجاليات اليهودية والمؤسسات الصهيونية[1] .

---

(1) Walter P. Zenner, A global community. The Jews from Aleppo-Syria, Detroit, 2000

كذلك ظلّ (موسى عبادي) مخلصاً لحارته ومدينته، بخلاف بعض الكتاب اليهود الذين يلعنون المدينة العربية أو يحنّون لها بلغة رثائية أخذوها عن غرب مسكون بهاجس المحرقة[1]. فهو وإن يُسلّم بأن دمشقه «لم تعد في دمشق»، يقدّم مدينته العربية كنموذج بديل عن المدينة الأوروبية التي سادت العالم على أساس اقتلاع الفرد من جذوره وجعله أداة أو وظيفة في فضاء مُغْفَل. وتحمل قصة ***راشيل واحدة بين كثيرات*** إشارة واضحة لهمجية تلك المدينة الحديثة. كما تذكّر بطروحات الاشتراكية الأوروبية التي اعتبرت أن اضطهاد اليهود ناتج عن ظلم المجتمع الرأسمالي ليس إلّا. كذلك يبرز في قصتي ***المسيح سيأتي غداً*** و***من فوق العريشة*** التفاوت بين ممارسات الغرب النازية أو الكولونيالية وبين القيم السائدة في المدينة العربية .

يستخدم الكاتب لغة فرنسية طوّعها حتى تنقل لغته «العربية الأم» بجملها المتشعبة ومجازيتها الخاصة وبعض تعابيرها التي نقلها كما هي أو ترجمها حرفياً. ولعلّ أكبر دليل على هذا التطويع يكمن في استخدامه لكلمة غيتو التي يُفرَغها من إرثها الأوروبي ليحتفظ فقط بمعنى الحارة الذي صارت تُعبر عنها[2]، لاغياً بذلك ما تستحضره وسائل الإعلام المنحازة باستعمالها تعبير «غيتو دمشق»، بل مستبدلاً هذه الكلمة أحياناً بـ quartier التي تشير إلى الحي كوحدة سكنية.

ينتهي ابن الحارة البار إلى أنه «عندما نحب يجب أن نرحل».

---

(1) انظر مثلاً كتاب نعيم قطّان «وداعاً بابل» الصادر بالعربية عن دار الجمل.

(2) تحمل الحارة معنىً سلبياً أحيانا لكنها لا تبدو منعزلة عن المدينة بل مرآة تعكس حالها، علماً أن الحارة هنا هو اصطلاح مجازي أكثر منه سوسيولوجي. هذا وتُجمع المصادر التاريخية العربية كما اليهودية أن المدينة العربية لم تشهد حارة خاصة باليهود قبل العصر العثماني.

هذا تحديداً ما فعله (موسى عبادي) الذي آثر الرحيل بعيداً عن الأرض التي ما فتئ محبيها يمزقونها. وهذا ما فعله أجداده العباديون الذين رحلوا عن قبائلهم للعيش في مدينة تجمع أعراقاً وأدياناً مختلفة تحت سقف حضارة مشتركة. وهذا ما فعله مثاله الأعلى (موسى بن ميمون) الذي رفع راية اليهودية لا في أرض ميعاد أو في غيتو، وإنما في إطار الحضارة العربية الإسلامية.

مايا الخوري وشريف كيوان

في البداية

الشخصيات التي حبستُ في هذا الكتاب تبعتني ولاحقتني، طاردتني وعذبتني، طوال حياتها. ورغم أنَّها هجرتني منذ دهر، فإنّ أحداً أو شيئاً لم يتمكن من طردها من ذاكرتي.

لو أنَّها بحثت لنفسها عن مؤلف، لكانت أصبحت ربما شخصيات مسرحية شهيرة، مثلها مثل «الست شخصيات» التي سبق وأطلقها ساحر صِقلِّي على خشبة المسرح[1].

لكنّ قَدَرَها شَاء غير ذلك. ها هي ذا وقد وقعت في شرك كركوزاتي[2] لا عذر له إذ يقدمها دونما حرج، في عرض أخير، على مسرح خيالي، سوى أنه يحاول إقناع نفسه بأنها لم تندثر بعد.

---

(1) إشارة إلى مسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لكاتب المسرح والقصة الإيطالي لويجي بيراندللو (1867- 1936) الذي حاز على جائزة نوبل للآداب عام 1934 وكرّس جُلّ أعماله لبُسطاء جزيرته صقلية. تميز بأسلوبه اللاذع ونزعته الوجدانية. وقد تأثر به موسى عبادي وجان آنوي وجان بول سارتر وجان جينيه.

(2) يستخدم الكاتب كلمة montreur التي تقترن عادة بفنون الفرجة القديمة.

صورة من شريط الأحداث

لو صدّقنا أسطورة مثيرة، والحق يقال، للجدل كأسطورة قبيلة بني إسرائيل الثالثة عشرة[1]، فإنّ زَوجَين من أجدادي استقبلا في منزلهما، واستضافا طيلة عيد الفصح، غريباً من (طرسوس) انتهى، بعد تيه طويل، إلى حارة اليهود بدمشق.

ودائماً بحسب هذه الأسطورة فإنّ الغريب المدعو (شاوول) لم يكلّف نفسه عناء شكر العباديين على حسن ضيافتهم، وتكفيراً عن فظاظته هذه لمّحَ اثنان من رفاق دربه، (برنابا) و(طيموتاوس)، إلى أنه كان، قبل أن يصل إلى مضيفيه، قد أصيب بضربة شمس على طريق دمشق. ليكن. . .

*

من تلك الحارة نفسها خرجت ذات صباح ضبابي من شهر كانون الأول لاكتشف كوكباً آخر. . .

سنوات طوال باتت تفصلني عن ذاك الصباح !. . . وكلما عدت وتصفحّت ألبوم صور ووجوه حارتي المتلاشية[2]، وجدت نفسي

---

(1) حسبما ورد في التوراة والإنجيل والقرآن، فإن قبائل أو أسباط بني إسرائيل اثنا عشر، أسسها أولاد النبي يعقوب الاثنا عشر.

(2) «صور ووجوه من مسرح اليوم» عنوان البرنامج الذي قدمه موسى عبادي بصفته ناقد مسرحي خلال عشرين عاماً في إذاعة فرنسة الدولية.

محاصراً بصورة «من شريط الأحداث»، صورة حائك من حائكينا المسنين ممن ينطبق عليهم مثل «الحايك عريان».

كنت قد صادفته يوماً قرب مشغله، أو بالأصح سجنه، الواقع عند تقاطع الشارع المستقيم مع حارة الجمعة، خلال الاستراحة المعدودة الدقائق التي يمنحه إياها معلمه.

كان جالساً القرفصاء، ماداً ساعديه إلى الأمام وجامعاً قبضتيه. وسمعته، وأنا غير مصدق أذنيّ، وهو يتضرع إلى الله حتى «يبعث له ثورة» .

- ماذا تتأمّل من ثورتك هذه؟ سألته .

- آمّل من ثورتي كل ما يمكن تأملّه من ثورة جيدة. وقبل كل شيء، خبز أكثر وظلم أقل.

- وماذا تفعل حتى تعجّل بقدومها ؟

- أصلّي. وماذا تريدني أن أفعل غير ذلك ؟

ملكة حلّت من السماء

في عصر ذلك اليوم من شهر تموز، كان الدمشقيون يختنقون من الحر والحارة ترتجف من الخوف. «وماذا لو كانت قد غيّرت طريقها واتجهت إلى حيث لا ندري؟» كانت لجنة الاستقبال تعيش يوماً ثالثاً من الترقّب والقلق وما كان أحد ليراهن أنّ ذلك اليوم سيكون الأخير.

كنّا قد فرشينا وغسلنا الأبواب والبوابات، ولمّعنا كل المطارق، ومسحنا *المزوزات*[1]، وأعطينا «إكرامية» لكلٍّ من زبَّالَي البلدية لحثّهما على مطاردة قشر الصبار والبطيخ المعفّن والقطط الميتة ورؤوس الغنم المتفسخة المكدسة أمام الملاحم. باختصار شديد، رتبنا كل شيء بحيث تجوب العربة الفخمة التي ستقلّ السيدة الجليلة من مدخل دمشق الشمالي، بشوارع لا يجد فيها أمهر الكلاب عظمة تُقضم.

تدلّى السجاد العجمي والأخمرة الحريرية من النوافذ. وقامت زوجات وأمهات وجدّات وحموات أكثر وجهاء الحارة نفوذاً بجمع مواهبهن وكبريائهن وشهرتهن لتحضير حلوى الأهلاً وسهلاً

---

(1) المزوزة علبة أسطوانية تُعلّق على إطار باب الدار وتحتوي على آيات توراتية مخطوطة على ورق البردى (المؤلف).

والمرطبات المنكهّة بماء الزهر التي ستقدمها بأنفسهن على أطباق الفضة لتلك التي شرّفتنا بعودتها إلينا بعد طول غياب .

والآن أعتقد أنه بات عليّ أن أكشف لكم سبب هذه التعبئة العامة وهذا الاستنفار : الموضوع بكل بساطة متعلق باستقبال ملكة مع كل ما يستوجبه ذلك من أبهة واعتبارات ومراسم تشريفية. ملكة حلّت من السماء !

منذ الزيارة التاريخية التي قامت بها بارونة من آل (روتشيلد)، في مطلع القرن، لم تطأ الحارة قدم ملكة. وتلك اللواتي سمعنا عنهن، كنّ، إذا صحّ التعبير، ملكات توراة، ومنهن، على سبيل المثال لا الحصر، (استير)[1] الجميلة التي حلّت بدورها من السماء، ولحسن حظ الشعب العبراني، وسط فراش (أحشورش).

كانت (صالحة ستيتية) أصغر أولاد العائلة السبع عشر، قد اختفت وهي في الخامسة عشرة دون أن تترك أثراً. تناقلت الألسن آنذاك أحاديث عن اختطاف واغتصاب وحتى عن قتل. «ارتاح روبين المسكين من هَمٍّ واحدة»، تهامست الجارات اللواتي كنّ بالمناسبة يجهلن أية واحدة من بنات «روبين المسكين» الإحدى عشرة قد اختفت. كان تحرّي الشرطة والبحث عن المفقودين للأغنياء فقط. وبالناقص من يهوديّة !... عُلِّقت القضية .

ومرّت الشهور والسنون... وخيم شبح الموت على عائلة (ستيتية). فراح الأب والأم ومن ثم الأخوة والأخوات الستة عشرة

---

(1) استير امرأة يهودية تزوجها ملك الفرس أحشورش فنالت منه العفو لأبناء شعبها بعدما خطط وزيره لإبادتهم. وسِفْر استير من أسفار العهد القديم.

ضحية «ذاك المرض»[1] والزكام الخبيث وأمراض أخرى أكثر غموضاً لم يستطع الطبيب الوحيد في الحارة اكتشافها في الوقت المناسب.

وفي يوم من الأيام، بعدما مرّ زمن طويل وما عاد أحد يذكر «ماذا كان اسمها ؟ أعرفت من أقصد ؟ . . . تلك الهاربة. . .»، مَثُل على حين غرّة، رجل، غريب عن الحارة، أمام أعضاء المجمع المجتمعين في «جلسة طارئة» برئاسة عمي الكبير، «رئيسهم الأبدي». وضع على الطاولة التي جلسوا حولها مظروفاً مختوماً بالشمع الأحمر وانسحب بسرعة متمتماً : «ها كم !».

غريب شبه أبكم آتٍ من الله أعلم أين، ورسالة مختومة، لكن دون طوابع بريدية، مرسلة من الله أعلم من، كان ذلك كافياً لبعث الاضطراب والقلق في نفوس أهدأ أعيان الحارة المسالمة وأرصنهم.

كان على الرئيس القيام بالمهمة الحساسة ألا وهي فضّ المظروف ومعرفة ما تتضمنه الرسالة الموضوعة داخله. وقد أدّاها، كعادته، بكثير من الصفاء والحكمة والوقار.

- يا يوسف أفندي، ماذا تقول هذه الرسالة ؟ وهل هي مرسلة حقاً إلينا ؟ . . . سأله نوابنا.

- هذه الرسالة، أجاب الرئيس، موجهة، كما كُتِب على المظروف، إلى مجمع الطائفة اليهودية بدمشق، يعني لكل عضو من أعضاء هذا المجمع وأولّهم رئيسه. . . لكن أصغوا الآن !

روت الرسالة في عشر صفحات مخطوطة بالعربية الفصحى قصة

---

(1) مرض السّل (المؤلف).

لا تقلّ غرابة عن تلك التي حصلت لـ(موسى) الذي انتشلته، في اللحظة الأخيرة، من البحر، ومن موت محتّم، أجمل بنات فرعون.

ككلّ مسيحي صالح، يمكن طبعاً لليهودي، بل يتوجب عليه في بعض الحالات، أن يؤمن بالمعجزات. لكن حتى تصبح تلك القصة اللا ـ معـ ـ قو ـ لة بمثابة كلام توراة... كان على أعضاء المجمع أن يخطوا خطوة جسيمة ترددوا في القيام بها.

فمنحوا أنفسهم يوماً للتفكير، الوقت الكافي لاستشارة السمّان العرّاف بشأن حجم المعجزة التي قد ينطوي عليها حدث كبير وغير متوقع كهذا وإن كان قد سبق وبُشِّر به.

لدى انتهاء الاستشارة، اقترح عليهم العرّاف الذي، لا داع للتذكير، لم يقرأ يوماً حرفاً من كتابات (باسكال)، أن يقبلوا برهان صاحب كتاب «الخواطر» الشهير هذا :

- عند الشك، لا بدّ من الإيمان بالمعجزات... فإما أن تتحقق المعجزة وتكونوا أول المستفيدين منها أو لا تتحقق فلا تخسرون شيئاً لمجرد اعتقادكم بها...

فلتكن إذاً معجزة !

*

لو كانت (صالحة ستيتية) قد اكتفت، بعد أكثر من نصف قرن على اختفائها، بالإعلان عن عودتها القريبة للبلاد، لما كان في الأمر من غرابة. أَلَم يُكتب أنّ الطائر الضال يظل يبحث عن عشه مادام قادراً على تحريك جناحيه؟ المشكلة أنّ (صالحة) العائدة إلى العش كانت قد تحولّت خلال تلك الفترة إلى ملكة، وتحديداً إلى المحظية الثانية السابقة لملك تمتد مملكته، كما ورد في الرسالة،

«حتى أقاصي الصحراء». وهذا الملك الذي طلّقها حديثاً، حسبما تقول الرسالة، منحها ما يعادل وزنها ذهباً (هذا تفصيل مهم سيسمح لنا بعد قليل بتقدير كرم الملك حق قدره)، ووضع تحت تصرفها قافلة من عشرين جملاً لتحمل إلى بلدها المصاغ واللآلئ وآلاف التحف الفريدة التي كان يودعها عند قدميها كلما شاركته الفراش .

كأنّ كاتب الملكة نقل حرفياً إحدى قصص «ألف ليلة وليلة».

كانت صفحة الرسالة الأخيرة مخصصة لبعض إجراءات الإقامة. فقد رجت جلالتها رئيسَ المجمع أن يجد لها قصراً ليس ببعيد عن البيت الذي أبصرت فيه النور، وأن يشتريه باسمها مهما كان الثمن. أما عن تاريخ دخولها إلى مدينتها العزيزة وحارتها الغالية فقد حددته الملكة إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة تقريباً، لأنّ القوافل تبقى عرضة لأهواء الخماسين وهجمات الجراد.

مضى إذاً صباحان ومساءان. وغداة الانتهاء من تحضير مراسم الاستقبال، في موعد لقاء كل ذباب دمشق على أقمشة التول المغطية لصواني الحلوى، ذُبِحت سبعة خراف، لا واحد كما جرت العادة، أمام مدخل «القصر».

وصلت جلالتها. وصلت كلها.

مائة وعشرون أو مائة وثلاثون كيلو، ثلاثة أو أربعة أذقان، خدود متهدلة، أجفان مغطاة بطبقات كثيفة من الكحل السائل حتى أطراف الشفاه، فم كله من ذهب، وزنود أسمن من أفخاذ العمالقة، هكذا بدا لنا الغول لدى نزوله من العربة.

لكننا، والحق يقال، لم نُكْرِم جحودة. فما أن استقرت فيما سنستمر بتسميته «قصرها» إكراماً لذكراها، حتى أمهرت (صالحة)

عشرين يتيمة، وأوصت أبرع خطاطي القدس على ثلاث نُسَخٍ من التوراة، وتكلّفت بترميم قاعة المحكمة الحاخامية، وجهّزت صالة «نادي الشبيبة» ببلياردو وفونوغراف وقدّمت ساعة جيب ذهبية لكلٍ من أعضاء المجمع ولزوجاتهم حرائر نسجتها جواري إحدى حريم سيدها ؛ أي أنها وباختصار شديد قدمت من الهبات خلال أيام قلائل أكثر مما قدم أكابر حارتنا خلال قرن. حتى أنّ أحداً لم يعترض لا على زواجها من قبضاي يصغرها بثلاثين عاماً، كانت قد استأثرت به، ولا على مهزلة تنصيبه أميراً بموجب الأعراف السائدة، حسب زعمها، في قصور أوروبة ومنشورية.

لمّا وصلها أنّي سأصبح «عالماً»، دعتني لأتأمل مكتبة من بضعة خمسة آلاف مجلد اشترتها لتوّها من ابن إحدى عائلات الروم الأرثوذكس الذي كان يُصفّي مكتبة ورثها عن والديه.

كانت تلك المكتبة العجيبة تحتوي على كل الألوان والأصناف : مؤلفات بعشرات اللغات منها العربية بالطبع والفرنسية والإنكليزية والتركية وحتى الفارسية. كتب في قواعد اللغة وعلم الفلك والنحالة والعهدين القديم والجديد، الخ.

قالت لي مشيرة إلى رفوف خشب المُغْنَة التي رَتَبَّت عليها الكتب حسب ارتفاعها :

- مشكلة الكتب أنه يجب تنفيض غبار كل منها مرة في الشهر على الأقل. هذا ما يفعله اثنان من خدمي طوال النهار.

- عندكِ من الكتب ما يسلّيكِ في ليالي الشتاء الطويلة. . .

- آه ! أنا أعترف وبكل تواضع أني لا أقرأ أبداً. . . ولسبب وجيه هو أني لم أتعلم القراءة أبداً.

- و. . . الأمير؟

- هو أيضاً لا يعرف القراءة. . .

- إذاً هذه المكتبة وهذه الكتب لِمَن؟

- ليست لأحد. . . لكن يجب أن يكون لسيدة بمكانتي مكتبتها الخاصة. . .

كأننا في مسرح (موليير)! فهذه الأميّة الثرية جداً التي تحرص على مراعاة مكانتها أياً كان الثمن إنما تقلّد (مسيو جوردان)[1] من حيث لا تدري. . .

سحَبَتْ المجلد الأول من الرف الأول وقدمته لي:

- تفضّل، لا بد أن يعجبك. يقال أن مؤلفه كان يتنبأ بالمستقبل. . .

كان كتاباً لـ(جول فرن) من سلسلة (الأحمر والذهبي) الصادرة عن دار (هيتزل) للنشر.

كانت المرايا الضخمة «المستوردة من إيطالية»، حسب تأكيدها، تحاصرنا من كل جانب مكررة شخص الملكة الضخم إلى ما لا نهاية.

- لقد كنت دوماً محاطة بالمرايا، قالت متظارفة. كان قصري «هناك» مليء بها. . . وكان بودّي أن أريك منها المزيد، لكنها في غرفة الأمير وهو لم يزل نائماً. . . إنه يشرب الكثير من العرق، وكل يوم أكثر وأكثر. . . اليوم عاد فجراً متكئاً على عَرَبْجِي. يا حزين يا أميري. . .

---

(1) شخصية حديث النعمة الذي يحاول تقليد النبلاء في مسرحية «الثري النبيل» لموليير.

قبل عودة (صالحة ستيتية)، ما كان أحد في الحارة أو خارجها قد سمع بمملكة سيدها السابق الخرافية. وعندما كانت تتنازل وتشير إليها، كانت تكتفي دوماً بتعابير مبهمة، فتحدد مكانها تارة «هناك. . .» وتارة «غرب بغداد» وأخرى «في أقاصي الصحراء». الأمر الذي أدى مع مرور الوقت إلى إثارة شكوك متملقيها الأكثر سذاجة. وبصريح العبارة، صار البعض يتساءلون ويطرحون الأسئلة بحذر على أعضاء المجمع الذين صادقوا بشكل أو بآخر على «معجزة الملكة». لذلك، عندما أعلن (ايليا روته) عن سفرته المقبلة إلى بغداد حيث لديه بعض الأشغال، دعاه هؤلاء للتشاور في جلسة مغلقة، ورجوه أن ينتهز فرصة تواجده في المنطقة ليبحث عن أكثر الملوك تكتّماً ويشكره باسم كل الطائفة على إعادته لنا ابنتنا الضالة وهي بهذه الحالة الحسنة.

بعد مرور شهرين أبلغهم الرسول بنتيجة بحثه :

- لا يوجد ولم يكن هناك أبداً من مملكة لا في «غرب بغداد» ولا «في أقاصي الصحراء».

هل بَحَث في كل مكان؟ الصحراء شاسعة. . .

- إنّي أقول لكم أنّ هذه المملكة لا وجود لها اليوم ولم يكن لها يوماً من وجود. . .

- لكن هذه القافلة والثروة الطائلة وهذا المصاغ والبذخ والخدم؟

- ابحثوا تجدوا، أجاب تاجر الحرير الذي بدا متأكداً من مصدر. . . كل هذا.

أوقعت كلماته أعضاء المجمع الثلاث عشر في الحيرة

والذهول، علماً أنه لم يقل كل ما أشار إليه شركاؤه في بغداد.

أخرج الرئيس من جيب صدريته الساعة الذهبية التي كانت الملكة المخلوعة قد قدمتها له وتساءل : بذمته وضميره، أبإمكانه الاحتفاظ بها ؟

- كان الله في عوننا، تمتم مودعاً باقي كاتمي السّر والساعات الذهبية الاثنتي عشرة.

كان كتمان سر كهذا فوق طاقة الجميع. وما أن مضت ساعات قلائل حتى غدا سّراً شائعاً. كما شاع أنّ كل ما روته (صالحة) ليس سوى أقاويل وأنّ المُخادِعَة ستُطرد قريباً من الحارة وستُرحَّل إلى مملكتها الوهمية «هناك، في أقاصي الصحراء».

لكن كل الذين أغرقتهم الملكة بخيراتها كان لهم رأي مغاير. وتعالت أصواتهم في الكُنُس : «إنّ الله هو الذي أرسل لنا هذه الملكة ونحن لن نرتكب خطيئة الحكم عليها بهجرة ثانية. لقد عادت إلينا وسنحتفظ بها».

وهكذا كان. . . «تربّعت» (صالحة ستيتية) طويلاً على عرش هذه القلوب البريئة، حتى جاء يوم تركتهم فيه، بعد موت «أميرها» المفاجئ، قاصدة مملكة أكثر حفاوة من تلك التي كانت قد اختلقتها.

*

أوصت الملكة بأموالها المنقولة وغير المنقولة للطائفة. لكن كان لا بدّ من انتظار مراسم الثلاثين التي أقيمت في باحة «القصر»، لاستشارة أكثر حاخامات دمشق والقدس علماً وتشدداً : أيجوز لنا قبول هذه الهبة ؟ وإن نعم، ماذا نعمل بمال الخطيئة هذا ؟

احتاج الأمر لسنة من البحث والتشاور والتداول والمواجهة والمساومة للتوصّل إلى تسوية بين مدرستيّ دمشق والقدس تنص على عدم تحريم اقتناء تلك الثروة بالمطلق شريطة تخصيصها للإحسان والتقوى، وعدم تحريم الصلاة لـ(صالحة) المسكينة التي جمعتها بمشقّة، بعيداً عن الحارة، «هناك، في أقاصي الصحراء».

الخطّاط

اسمه (يعقوب مازلتوف)، يعقوب المحظوظ، لكنه اشتهر بالخطاط. فقد خطّ على ورق بُردى من شتى الأحجام مئات من نصوص *المزوزة والمغيلة*[1] التي كانت الناس تتهافت عليها لا في حارتنا وحسب، وإنما في حارات حلب وبيروت وبغداد والقاهرة والإسكندرية أيضاً. وحتى من القدس كانت تأتيه الطّلبيات رغم شهرة خطاطيها المضاهية لشهرته.

كان خطّه من الجمال والأناقة بحيث نسب إليه بعض معجبيه مواهب خارقة. كان يُقال أنّه كل صباح وهو عائد من الكنيس كان يدعو الله أن يوفّقه بما سيُقدم عليه، فلما كان يغطّ قلمه في المحبرة، كانت سبع ملائكة تتعاقب حوله وتقود يده ليكون كل حرف من أول سبع كلمات مخطوطة في ذلك اليوم كاملاً مُكَمّلاً كالطفل لدى ولادته. كما كان يُروى أنّه قبل فترة من تعلّمه الكتابة، كان يخطّ على حيطان غرفة والديه المُكلّسة حِكَم سليمان بن داود ملك إسرائيل ؛ وأنّه حين بلغ العاشرة، كان ينزوي في سقيفة وينسخ على دفتره المدرسي نصائح أحد أجداده بشأن «حسن معاملة» ورق

---

(1) نص يُتلى في الكُنُس في عيد (فوريم) ذكراً لنجاة يهود فارس من خطط وزير أحشورش لإبادتهم (المؤلف).

البردى (آل مازلتوف يتوارثون حرفة الخطّ أبّاً عن جد) ؛ وأنه أخيراً عندما بلغ الثالثة عشرة وعقد جبينه بالتعويذات للمرة الأولى وغدا تالياً مسؤولاً عن أفعاله أمام الله، كان قد أصبح ملمّاً بكل أصول فنه.

كل من حَظِيَ بشرف مشاهدته وهو يعمل، كان يؤكّد أنّ قصب قلمه كان يشدو كلما لامس ورق البردى.

كان (مازلتوف) يتمتع بموهبتين : الخط والرسم. فمن خطّ ***نشيد شكر (موسى) وبني إسرائيل لـ(أدوناي)***[1] ***على إغراق مطارديهم في البحر الأحمر***، كان ينتقل بخفة يمامة نوح إلى الرسم المائي، فيرسم ببدائية (دوانييه)[2] مشاهد مستوحاة من التوراة كتضحية (إبراهيم) وظهور (موسى) على جبل سيناء ووصول الناجين من عبور الصحراء إلى أرض الميعاد، الخ. وبعض رسومه التي أكملها في ساعات أرقه تُذكّر برسوم ما قبل التاريخ المنحوتة في الصخر.

لم يكن خطاطنا واسع الثراء لكنه عاش في بحبوحة. وقد اعتاد أن يشاركه طعامه ثلاثة أو أربعة فقراء يأتي بهم بنفسه من مساكنهم البائسة. وبما أنّ مشيئة الله حالت دون أن تعطيه زوجته ولداً يورّثه حرفة الـ(مازلتوف)، فقد ظل بابه مفتوحاً للأيتام المتسكعين في بعض أحياء دمشق المظلمة.

وكلما شكره أحد على طيبته وكرمه تجاه هؤلاء المشردين الذين قد يكونون، والعياذ بالله، حرامية أو ألعن من ذلك، أجاب أنه هو

---

(1) اسم لله في التوراة.

(2) دوانييه رسام فرنسي عُرِف بسذاجة أسلوبه.

من يشكر الله الذي منحه إمكانية استقبالهم ومساعدتهم :

- ما أسهل فعل الخير ومد يد العون للقريب عند المقدرة. . . وما على الذين يُخْفُون ثرواتهم في قاع الجرار إلا أن يحذوا حذوي. وحسبهم أن يقنعوا بالقليل ويبتعدوا عن الترف.

هكذا كان يتكلم الخطاط يوم كان مُشعّاً بحب الحياة والناس مستعدة لتقديم الأضاحي أمام قدميه.

*

لم أتعرّف عليه إلّا بعد عشرين عاماً من ذلك. كان قد أصبح فقيراً بين الفقراء، لا تحييه الناس إلا شفقة أو بحكم العادة.

ذات مساء، أثناء مروري أمام قصر آل (لارنادو) الصيارفة، سمعته يناديني :

- موشيه ! يا موشيه !. . . الحمد لله الذي أرسلك. . .

كان يتشبث بمطرقة الباب بكلتي يديه كي لا يقع. وقال همساً :

- لست على ما يرام. . . لا أدري ما الذي أصابني. . . ربما التعب. . .

ترك مطرقة الباب وتشبّث بذراعي. كان يتكلم ببطء وتأنّي كمُحتضر يشعر بحاجة لإضافة ملحق لوصيته قبل فوات الأوان :

- رافقني حتى البايكة[1]. . . وأنا أتدبر أمري هناك. . . لقد عتّم الليل وزوجتي المسكينة حتماً في غاية القلق. . .

ناولته منديلي، فمسح عينيه وجبينه ولحيته ثم دسّه في جيبه:

---

(1) مخزن الحبوب.

- سأعيده لك بعد أن تغسله زوجتي. الحمد لله الذي أرسلك لي. لولاك لما زلت الآن أمام باب الـ... الصيارفة...

- ولكن لماذا تُصّر على البقاء بعد الظهر في الكنيس ولا تغادره إلا في ساعة متأخرة... لو رآك الطبيب هنا في مثل هذا الوقت...

- مهلاً... مهلاً، قال وقد توقّف لالتقاط أنفاسه. لا تتعجّل بالكلام. أي طبيب؟ لقد تجاوزت الثمانين وما عدتُ أعيش إلا بانتظار الموت. مداومتي على الكنيس؟ وهل لي من مكان آخر أذهب إليه؟ في البيت لا تكفّ زوجتي عن البكاء والنحيب والتشكّي... ومذ أصبحت بلا عمل، ما عدت أشعر بالراحة إلّا في بيت الله حيث أُكثِر من قول وسماع كلمة *آمين*.

- *آمين* بالزائد أو بالناقص... ليس هذا ما سيجعلك تكسب أو تخسر مكانك في الجنّة...

- لا تتكلم بفظاظة يا بني. كل *آمين* نسمعها أو نرددها بعد دعاء تُطهّرنا قليلاً من خطايانا. وهذه هدية لك مني. فها نحن أمام سبيل (الراعي) وماؤه كما تعلم مشهور بنقاوته وعذوبته. سأشرب منه قليلاً شاكراً ذلك الذي خلق كل شيء بكلمة أمره وأنت ترد *بآمين*.

تلا صلاته مباركاً الماء وانتظر ردي *بآمين* حتى يشرب ما تبقى في باطن يده من قطرات.

يعقوب المحظوظ، يعقوب البديع صار يقطن في آخر الحارة، في منزل متصدّع يأوي أيضاً «وكالة إعانة الغرباء»، وقد جاء في الكتاب : ***احبوا الغريب، فإنكم كنتم غرباء في أرض مصر.***

- الحمد لله أنّ جيراننا طيبون. إنهم ناس... ***ناس جَارَ عليهم***

الزمن... مثلنا. بعد شهرين، ستهطل المطر على فرشاتنا، كالشتاء الماضي. عندها أستطيع أنا أن ألجأ إلى الكنيس. أما زوجتي... يقول الطبيب أنها بحاجة لكثير من الحليب واللحم. حليب ! لحم ! حبذا لو يشرح أحدهم لهذا الشاب أنّ الخطاط الكبير لم يعد شيئاً...

- أما زلت ترسم... رسوم ملونة على ورق البردى وتمضي أشهراً في تعديلها قبل أن تعتزم مفارقتها ؟

- مازلت تذكرها ! كنت أسميها «مباركات» لأنها تُقَدّم بمناسبة ولادة أو *بارميتزفا*[1] *أو زواج... لو رسمتها اليوم لما فهمها أحد... أصلاً لم يعد بمقدوري الحصول على البردى الأصلي. وعندما يأتيني الوحي، بأعجوبة، وهو ما لم يحدث منذ زمن طويل، فإني استعمل طِرْساً لرسم «مباركة» صغيرة أهديها لأحد أولاد الحارة...*

- أريد أن أسألك سؤالاً آخر .

كان يستند إليّ وشُرَّابة *طربوشه*[2] *تدغدغ ذقني، وما كنت أدري إن كان مصغياً إليّ أم تائهاً* بين *شخصيات «مباركاته»* .

- اسأل سؤالك، (يعقوب) يسمعك .

- هل جرّبت أن تخطّ التوراة ؟

- أنا ؟! أنا أخطّ التوراة ؟

---

(1) طقس ديني يصبح في ختامه الفتى البالغ الثالثة عشر عاماً مسؤولاً عن أفعاله أمام الله (المؤلف).

(2) بالعربية في النص.

- نعم، أنت ! من هو الخطّاط الذي لم يحلم يوماً أن يُكلَّف بخطّ التوراة؟ ومن له موهبتك...

- موهبتي ! أنت لست أول من يسألني لِمَ لم يخطّ (يعقوب مازلتوف) الكبير والفريد التوراة أبداً... لكن لو كانت الموهبة وحدها كافية لاستحقاق هذا الشرف وهذه السعادة لكنت أمضيت عمري بخطّ التوراة. لا، إنّ الأمر يحتاج إلى أكثر من هذا بكثير، يحتاج إلى النقاء. وأنا لم أشعر يوماً بأنيّ نقيّ لدرجة استحقاق نعمة تأدية مهمة كهذه. والله الذي يعرفني أكثر منك لم يطلب مني ذلك...

- لحسن الحظ أنّ الجميع مازالوا يقدّرون *مزوزاتك* وتعويذاتك حق قدرها... قلت له متداركاً تطفّلي.

كنّا قد وصلنا إلى البايكة و(يعقوب) يئنّ كلما تقدّم خطوة.

- اتركني هنا. صار البيت على بعد خطوتين... الوقت الكافي لأتلو زبوراً...

- أُفضّل أن أوصلك لباب بيتك، فمطبّات دربك لا ترحم المُسنّين...

- لا عليك ! ما عادت أسرار هذه المطبّات تخفى عليّ. أستطيع تجنبها وأنا مغمض العينين...

مع ذلك، قَبِلَ أن أرافقه وتدرّجنا في الزقاق المسدود.

- تقول أنه بقي لي *المزوزات* والتعويذات. لكن التعويذات لا تُطعِم خبزاً. الأغنياء ما عادوا يؤمنون بها وليس بمقدور الفقراء الحصول على هكذا تأمين ضد الشر... أما *المزوزات*...

- ... «***ولتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك... واعقدها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك... واكتبها على دعائم أبواب بيتك...***»

- تماماً! هل رأيت باباً واحداً لا يحمل ***مزوزا*** في هذه الحارة؟ أنا الذي خطّيتها كلها ولففتها وأودعتها علبها. والبردى الأصلي لا يفنى، خاصة عندما يُحفظ بعيداً عن الرطوبة. لذلك ما عاد عندي غير طلبية كل شهرين أو ثلاثة... غدا صوته همساً بالكاد يُسمع... هذا كل ما بقي لي لـ... لأعيش. لكن لطالما أكرمني الله... وقريباً سيدعوني إلى رحمته فتزول معي سلالة (المازلتوف).

كنّا قد أصبحنا أمام باب بيته تحت ضوء شاحب آتٍ من لمبة الزقاق الوحيدة.

- لو رآك الله كما أراك أنا الآن لطلب منك حتماً أن تخطّ التوراة...

- ما كان ليفعل لأنه يعلم أني لست جديراً بذلك. فات الأوان... فات الأوان...

- استأذنك الآن يا (يعقوب)...

- حسناً... كما تريد... تصبح على خير أنت وأهلك... لكني لن أتركك تذهب قبل أن أباركك.

وضع (يعقوب) يديه فوق رأسي وتمتم:

- ليكن الرب معك ويحفظك حيثما اتجهت... ليباركك ويضيء بوجهه عليك.

*

خلال الأسبوعين أو الثلاثة التي تلت ذلك اللقاء بـ(يعقوب مازلتوف)، تم اقتلاع عشرات *المزوزات* ليلاً من على الأبواب التي تحصّن خلفها أكابر الحارة المحترمون.

من ذا الذي تجرّأ على تدنيس هذه الحُرُمات؟ أخذ ضحايا المخرِّبين يتساءلون كل صباح متلمّسين أطر الأبواب التي نُزِعَت عنها علبها المقدسة. كانوا يطمئنون أنفسهم قائلين : «لا بد أنهم أناس غلاظ أو استفزازيون عديمو المسؤولية أو يهود طالحون سيُحاسَبون على آثامهم أمام ذلك الذي يرى كل شيء».

وكانوا يهرعون إلى الخطاط، فالشؤم يدلف، كما هو معروف، من الأبواب التي لا تحمل *مزوزات* .

لكنّ الله لم يسمح لـ(يعقوب) بتلبية طلبياتهم. وكان أن وجده أحد أولئك «المنكوبين» على كرسيه ذات صباح، منحنياً على قطعة بردى كُتِبَ عليها (ألِف) : الحرف الأول من اسم *ادوناي*.

بعد مرور زمن طويل على وفاته، ظلّ أهل الحارة يروون أنّ الملائكة السبعة عادت إليه في ذلك الصباح لتقود يده مرة أخيرة .

الأميركاني

في العشرين من عمره، كان (رفّول شولا) أجيراً قد بدّل صنعته عشر مرات وخفّض أجرته من القليل إلى الأقل. فخَلُصَ إلى أنّ لا شيء يُرجى من أحد وأنّ السبيل الوحيد للخروج من هذا المستنقع هو اللحاق بابن عمه (ناتان) في أرض النعيم التي يصعب عليه حفظ اسمها، ربما هو... بونيتاسارس أو بينيسارس... إن لم يكن بونسارس... المهم، تلك المدينة التي يُكافئ فيها المرء دوماً على عمله ودأبه.

كحال مئات من مغامري الحارة من قبله، حرم (رفّول) نفسه كل شيء ليوفّر تكلفة السفر وحصل دون عناء كبير وبفضل الكثير من البخشيش على تأشيرة أصلية مختومة على جواز سفر مزور وركب من بيروت على متن باخرة مهترئة باتجاه «أرض اللبن والعسل»: الأرجنتين.

«يا رب يرجع لنا رفّول ملياردير اً»، كان والداه يرددان على مسامع أولادهما السبعة الباقين، وكلهم بنات، مترقبَين أول دليل ملموس على نجاحه: الشيك!

وانتظروا ستة أشهر طوال قبل أن يستلموا لا الشيك المنتظر وإنما رسالة كان (رفّول) قد أملاها على أحد مواطنيه «المتحضّرين» وقام بتلاوتها وشرحها لهم قارئ جوّال ليس أقل «تحضّراً» اختص

بقراءة الرسائل القادمة من الأميركيتين. قرأها إذاً وأعاد قراءتها بحضور جميع أفراد العائلة والجيران وأولاد وبنات العم وأقرب وأبعد الأقرباء المدعوين للاحتفال بهذه البِادرة المبشّرة بسنوات البحبوحة.

تقول الرسالة : «الحمد لله كل شيء بخير. الصحة بخير. ابن عمي بألف خير ويكسب بفضل الله الكثير من المال. العمل بخير. أنا أعمل بائعاً جوّالاً، أبيع شراطيط قماش بعون الله. أنا أيضاً أكسب المال. لكن ليس ما يكفي لأبعث لكم شيكاً. سأفعل إنشالله في *فوريم*[1].

تحياتي واحتراماتي لأبي نور عيوني وأمي شمس قلبي وعمي المتقدم جداً بالعمر، حفظه الله. تحياتي لصهري ولأبيه وأخيه وعمته. أطيب وأرقّ تحياتي لأخواتي الستة اللواتي أُحضِّر لهنّ مهرهن، وإلى (تيريه)، السابعة التي لم تعد محتاجة إلى مهر لأنها صارت متزوجة والحمد الله. تحياتي ومودّتي لكل من يسألكم عن أخباري وللحاخام (شكري) الذي أهداني أول تَلْد لي بمناسبة *بارميتزفا*. قولوا له أنيّ أذهب إلى الكنيس كلّ سبت تقريباً ولكنيّ لا أفعل باقي الأيام، سامحني الله، لأني أبدأ جولتي باكراً وأمشي خمسة أو ستة كيلومترات حاملاً الشراطيط على كتفي قبل أن أدق باب زبونة فتشتري أو لا تشتري .

أستودعكم الآن لأعطي هذه الرسالة لكاتبها الذي سيضعها بنفسه في صندوق للبريد.

---

(1) ذكرى نجاة يهود فارس من خطط وزير ملك الفرس أحشورش الهادفة إلى إبادتهم.

ابنكم الحبيب قرّة عينكم الذي يكرمكم حسب وصية الله.

رفّوله»

كان الابن الحبيب قد أرفق برسالته صورة يظهر فيها خلف مقود سيارة. شُدِه المدعوون.

- صار عند رفّولتنا أطونبيل !... صاحت والدته.

كان القارئ الجوّال «المتعلّم» يعرف جيداً أنّ السيارة التي يتبختر خلف مقودها من صار يحق له لقب «الأميركاني»، ليست سوى ديكوراً من الورق المقوّى صنعه مصوّر مُحتاج. لكنّه لم يكن من القساوة ليكشف الأمر لتلك العائلة النشوانة فخراً وسعادةً.

توالت الرسائل بتواتر شبه منتظم ومعها صور مثيرة أكثر فأكثر للذهول : (رفّول) وراء مقود طائرة ؛ (رفّول) بزي فارس شادّاً اللجام بيد، لكن دون حصان، وباليد الأخرى كرباج ؛ (رفّول) مجدّفاً في بحر هائج ؛ وأخيراً (رفّول) في وضعية المفكّر سانداً جبهته إلى قبضته.

«أميركاني عن حق وحقيق»، كانت (أم رفّول)[1] تردد وتجدّد مرتين أسبوعياً الحجاب الحامي من عين الحسود، وتتأكّد يومياً أنّ التعويذة الحافظة عن بُعْد والمُعدّة خصيصاً لابنها من قِبَل السمّان العرّاف (نديبو) مازالت في مكانها. وقد كشف لها العرّاف نفسه مساء خميس أنّه يرى ورقة صغيرة تنتظرها آتية من بعيد وهي تعادل ثروة.

وفي صباح الجمعة، كما كان يُقال في السينما عندما كانت

(1) كلمة أم بالعربية في النص.

صامتة، في صباح الجمعة، أي غداة تنبؤ (نديبو)، حضر ساعي البريد لبيت (شولا) وفي يده رسالة مسجّلة. لكن قبل أن يسلّمها لصاحبها، طلب من (أبو رفّول)[1] أن «يكتب» على صفحة من الدفتر المُزَفَّت إشارة ضرب في المستطيل المخصص لإمضاءات الذين. . . لا يعرفون أن يمضوا.

أخيراً وصل أول شيك ! الدليل القاطع أنّ الله يحمي (رفّول) و«ما يسعى إليه». شيك بقيمة ثماني ليرات ذهبية ! لم يملك أحد من بيت (شولا) يوماً عُشْر هذه الثروة.

خُبّئ الظرف بين فرشتين حتى لا يمسه أحد يوم السبت ولو سهواً، والأحد عند الفجر، ارتدى (أبو رفّول) ***قنبازه***[2] وسترة عرسه اللذين أخرجتهما زوجته من عشّ النفتلين وأرسل ابنته الصغرى لشراء دزينة صبّارة وعوّامة وقطعة حلاوة كبيرة وتناول فطوراً ملوكياً قبل أن يبدأ هذا اليوم التاريخي. وتماماً في اللحظة التي فتح فيها ***بنك سوريا ولبنان الكبير*** أبوابه، توجّه (أبو رفّول) إلى الكوّة تتبعه زوجته المرتدية بدورها أزهى ثيابها واثنتان من بناته و«رجل أعمال» مكلّف بفحص القطع الذهبية التي سيسلّمها له أمين الصندوق للتأكّد من أنّها ليست مزورة. أخذ الفاحص يعدّ الليرات الثمانية ويعيد عدّها ويزنها ويعيد وزنها وفحص أثلامها تحت عدسته المكبّرة : ما فيها أي عيب.

عاد الجميع إلى الحارة بعربة، وهو ترفٌ لم يعهده (أبو رفّول)

---

(1) كلمة أبو بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

أبداً، حاملين الحرائر والتحف والزجاجيات والصمديات بشتى أصنافها وثلاثة **مجامع**[1] فواكه مجففة وبراويز لصور (رفّوله). وقبل عرض كل هذه العجائب في المنزل، عرّج الجميع على الكنيس الذي شَهِد طهور «الصغير» وأشعلوا شمعتين بطول متر وسبعين سنتيمتراً على طرفي خزانة أسفار التوراة.

باختصار، حصل كل واحد على نصيبه من الشيك الأول وبدده الجميع بأكمله وبسرعة.

وصل الشيك الثاني بعد شهرين. وخلال سنة، أصبح وجه ساعي البريد مألوفاً في بيت (شولا).

«كمان واحد»، كان يقول لـ(أبو رفّول) دافعاً الباب المشقوق دوماً وبعدما يتأكّد أنّ أحداً آخر لا يسمعه.

يقدم له المُرْسَل إليه، سعيد الحظ، فنجان قهوة مع قطعة حلوى متمنّياً له أن يحظى يوماً لوحده بما يعادل كل الشيكات الموجودة في الرسائل المسجلة التي يوزعها شهرياً. ويقسم ساعي البريد إذا أراد الله أن يرزقه بثروة كهذه أن يوزع نصفها على الفقراء «أيّاً كان دينهم» قبل أن يمضي لتسليم بقية رسائل «الأميركانيين» إلى أقربائهم في الحارة. فالبشرية في رأيه تنقسم إلى أناس لا تتلقى أبداً شيكات وأخرى تتلقى دوماً. وكلما فرز الرسائل في بداية جولته الصباحية، يقول لنفسه أن حال الدنيا قد يتحسن لو أصبحت هذه المجموعة أكبر من تلك.

❊

---

(1) بالعربية في النص.

بعد خمسة عشر عاماً على مغادرته دمشق، أعلن رفّول عن عودته القريبة إلى كنف العائلة.

«سأكون معكم قريباً إنشالله. ولمّا قال الله بأنّه خير للإنسان ألّا يعيش وحيداً فإنّي سأنتهز فرصة زيارتي للحارة حيث أبصرت النور لأتزوج، بعد إذن والدَيّ الكريمَين شمس قلبي ونور روحي. . .»

تلا ذلك سيل التحيات التي لا بدّ منها لكل فرد من أفراد العائلة و«لكل من يسألكم عن أخباري». وفي حاشية، أضاف الكاتب العمومي وهو ليس سوى المواطن «المتحضّر» : «شريكي أصله من حلب. وهو تقيّ كابن عمي ولا يتعالى على يهود دمشق. وهو غير متزوج لكنّي متأكد أنه حين يُرزق أطفالاً سيربيهم حسب وصايا الله. هو من سيدير متجر *النوفوتيه* أثناء غيابي. وقد طلب مني أن أرسل له بسرعة صور صبايا من عندنا، أعمارهن بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، سمراوات وممتلئات وجميلات وثريات جداً. هو يقول دوماً أنّ الزواج الذي لا يُغني الزوج هو زواج سيئ. أنا لا أوافقه الرأي .

لكم منّي كل التبجيل

لبنكم الحبيب رفّول»

*

كانوا قرابة الثلاثين لدى وصول القطار من بيروت. وما كان أحد ليتعرّف على (رفّول) لدى نزوله من القطار لو لم تسبقه كل صوره. لكنه كان هو بعينه. الرجل ذو الأصابع المغطاة بالخواتم، صاحب قبعة القش واللؤلؤة الضخمة المشكولة بربطة عنقه المتعددة الألوان والبذلة البيج والحذاء البرّاق، المطابق كليّاً لنموذج الأميركاني المرسوم في مخيلتنا.

- الحمد لله ! ألف الحمد لله ! ابننا رجع. . . أخذت (أم رفّول) تهتف ودموعها تنهمر بلا توقف. لكن ثمّة سؤال تحرّقت لطرحه محاولة كتمانه حتى اليوم التالي : إلى متى سيبقى ؟

- مضى أكثر من خمسة عشر عاماً ونحن ننتظرك، قالت وهي تقدّم له قهوة الصباح، وقريباً ستغادرنا. . . ولن نعد نراك. . . ففي عمرنا هذا. . .

فطمأنها الأميركاني :

- لن أترككم قبل أن أجد عروساً تليق بكِ وبأبي. والواحد لا يختار زوجته كما يختار فروجاً. سآخذ كل الوقت اللازم لذلك.

وأخذ سؤال آخر يتكرر في أحاديث الوجهاء ممن قبلوا، بما أنها مشيئة الله، أن يعطوا ابنتهم لـ. . . لحديث النعمة هذا : «كم يزن ؟». وبتعبير آخر، كم يملك من ليرات الذهب تحديداً ؟

تسابقت الخطّابات من نخبة الستّات المجتمعات في صالون *الستّ* (سامحة)[1] وعرضن خدماتهن حيث أن التسالي قليلة في الحارة، وقدمن لرفّول تشكيلةً من أسماء العرائس الجاهزات اللواتي وإن لم يكتمل مهرهن، فسمعتهن تنوء عن كل الشكوك. بل وضمّت لوائحهن إحدى بنات الحاخام (مسلتون) التي أتمت لتوها عامها الرابع عشر وهيأها والدها لابن الحاخام (كمّون) الذي لم يكن قد مضىٍ على مناولته الأولى غير ستة أشهر وما كان يستطيع تالياً أن يتمم أهم واجباته الزوجية تحت الأنظار الحنونة وغير المحتشمة لوالدته وحماته.

---

(1) كلمة ستّ بالعربية في النص.

كان (رفّول) يشكر أولئك السيدات اللواتي لا يردن له سوى كل الخير دون أن يبدي رأياً. بدأ صبر أهله ينفذ. وقلقوا لرؤيته يصرف المال بلا روية : كونه «أميركاني» لا يعني أن كيسه لا يفرغ. فوعدهم أن يختار عروساً حال انتقالهم إلى البيت الجديد الذي قدمه لهم ليواسيهم كونه زَوَّجَ كل أخواته، عدا واحدة، لغرباء : بيروتيين وحلبي وقاهريين وبغدادي أيضاً. والتزم بوعده. ففي اليوم الذي علّق فيه والداه صورة العائلة فوق فراشهما الجديد، أخرج من محفظته صورة أخرى وناولها لأبيه. كانت صورة «فنيّة» لـ(بهية ممرود)، ابنة البيّار[1]. كانت الأفقر بين جميع «المرشحات» اللواتي قُدمّن له منذ عودته، لكن أكثرهن جاذبية : «أحلى عيون في الحارة». والأحلى من ذلك أنها التحقت بالمدرسة فترة كافية لتتعلم أنّ أجدادها هم الغالِيون[2] وأنّ (جان دارك) أنقذت الوطن بطردها الإنكليز خارج فرنسة قبل أن تُحرَق حيّة.

كانت (بهية) المرأة المثالية لـ(رفّول) وإن كان بمقدوره نيل الأحسن.

- الله ألهمك يا بني، فهذه البنت من طينتنا وحال أهلها كحالنا، قال له أبوه.

طُلِبَت يد العروس. أقيمت الخطوبة. وجرى كل شيء بسرعة إذ تمّ الاتفاق على أن يأخذ (رفّول) (بهية) «عارية» أي دون مهر أو

---

(1) من يعزّل الآبار الحلوة من الدور والبيوت (قاموس الصناعات الشامية).

(2) كانت المدارس الفرنسية تلقّن أبناء المستعمرات أنهم من سلالة «أجدادنا الغاليين» نسبة إلى بلاد الغال التاريخية التي كانت تشمل فرنسة الحالية وغيرها من بلدان غرب أوروبة.

جهاز. الأمر الذي بدا بديهياً لأنّ البيّار لم يكن قادراً أن يشتري حتى مشطاً أو منديلاً لابنته.

- أرجو أن تُنجِبي لـ(رفّول) صبياً بأقرب وقت، قالت الحماة لكنّتها الجديدة متفحصة أوراكها.

*

قبل ثلاثة أيام من الحدث السعيد، انهارت السماء على رأس الأميركاني : في رسالة خطّها مواطن «متحضّر» آخر، أعلمه ابن عمه بصريح العبارة أنّ شريكه غَرَف من الصندوق بغير حساب وشمّع الخيط، وأنّ متجر ***النوفوتيه*** لم يعد يساوي شيئاً، وأنّ على (رفّول) أن يتحاسب والدائنين الذين سرقهم الحلبيّ الفظّ ونتف ريشهم أثناء غيابه.

وهكذا أُقيم العرس بحضور حفنة من المدعوين الذين لم يخشوا الاقتراب من رجل «ضربه الله» وصار بالتالي قادراً أن ينقل لهم النحس بالعدوى.

بعدما دفع تكاليف العرس و«أكرم» الحاخامات الأربعة لقاء مباركتهم، لم يبقَ مع (رفّول) سوى شيك بقيمة خمسين ليرة وخواتمه ولؤلؤة ربطة عنقه. أي ما يكفي لشراء تذكَرَتَي سفر لمهاجِرَيْن. . .

*

«والديَّ الأكارم،

أخذ مني الحلبيّ كل شيء. أرجو أن يأتي اليوم الذي ينال فيه ابن الستين ألف كلب هذا قصاصه. لن أعد أثق بحلبيّ أبداً. كان عليّ أن أسمع من ابن عمي الذي كان يقول لي أنّ ضمير الحلبي يساوي صرماية. لكن لا تشغلوا بالكم علينا. (بهية) بصحة ممتازة

وبعد ستة أو سبعة أشهر ستصبحون جد وجدة لأول أحفادكم. (بهية) متأكدة أنّه صبي. لقد عدت أعمل بائعاً جوّالاً أحاول بيع الشراطيط لأرجنتينيين يترددون طويلاً قبل أن يشتروا، وغالباً ما يطلبون مني في اللحظة الأخيرة أن أعود في اليوم التالي. مهنة شاقة وأنا لم أعد شاباً. لكن الله معين، وما هي إلّا بضع سنوات ونعود مع أولادنا لنمضي بقية حياتنا في حارتنا الغالية ونكون جميعاً في غاية السعادة.

تحياتي الحارّة لأخواتي وأصهرتي، عدا الحلبيّ، ولصبيانهم وبناتهم. احتراماتي للحاخام (شكري)، ابن المأسوف عليه الحاخام (شكري) الذي قدّم لي تَلْداً بمناسبة ***بارميتزفا***. تحيات وسلامات لكل من يسأل عن أخبارنا. باركوا ابنكم الحبيب الذي يبجّلكم أكثر من قبل لأنّي أرجو أن تصبحون قريباً بعمر (إبراهيم) و(سارة).

رفّول»

*

انقطعت عني أخبار (رفّول شولا) وأهله وأخواته السبعة حتى ذلك الصباح من تموز 1981 حين اتصل بي «أميركاني» آخر يعيش في الأرجنتين ليبلّغني أثناء مروره بباريس «تحيات ودعوات» عمتي (لورا) من بوينس أيرس. كنت بالكاد أذكر اسمه فذكّرني أنّه ابن القنياطي[1] الذي قيل عنه في الحارة أنّ الله لم يكرمه يوماً بشيء ولا حتى بنفحة هواء نقي.

دعوته للغذاء، وما أن جلس قبالتي، بعد العناق والـ«أنت لم

---

(1) القنياطي أو القليطاتي نسبة إلى نهر قليط حيث تصب سياقات دمشق، هو مُعزّل بيوت الأخلية ومحلات القذر (قاموس الصناعات الشامية).

تتغير»، حتى سألته إن كان قد عرف (رفّول شولا) .

- يا له من سؤال !. . . صاح رافعاً يديه إلى السماء. إن كنت عرفت (رفّول) ؟! ومن لم يعرف، أو بالأصح من لا يعرف هذا الرجل الاستثنائي أطال الله عمره ؟!

انتهى الغذاء وصاحبي يحدّثني عن (رفّول) وعن صعود (رفّول) وعن حظ (رفّول) وعن عشيرة (رفّول) التي انتشرت في الأميركيتين .

وهكذا علمت أنّ (رفّول) في التسعين أو الخامسة والتسعين من عمره نشِط خفيف الحركة، وأنّ أحد أحفاده يملك إحدى أكبر مزارع الأرجنتين وأنّ ثانياً يعدّ من أشهر الفيزيائيين في العالم وثالثاً من أهم علماء النفس في عصرنا ويمارس مهنته في نفس المدينة التي عمل فيها جده بائعاً جوّالاً محاولاً تصريف شراطيط غير صالحة للبيع.

- ما سبب نجاح رفّول برأيك ؟ سألت العائد إليّ بعد طول غياب قبل وداعه.

- حسن طالعه.

- وعدا ذلك ؟

- إذا أردت أن تعرف المزيد عن سر هذا الصعود، فأسأل (رفّول) نفسه. إنه حي يرزق وخطوط الهاتف ممتازة بين باريس والأرجنتين. أنا اتصلت للتو بصهري. وهو أستاذ صاحب كرسي في قسم الجراحة بجامعة الطب في بوينس أيرس و. . . تصبح على خير!

- وأنت من أهله !

باطل الأباطيل

في نظر أعيان طائفتنا، كان عمي الكبير رجل علمٍ، عالماً جداً.

بما أنه كان موظفاً في مصلحة ضرائب الملح أثناء الحكم العثماني، فقد ألصق باسمه لقب (أفندي) الذي كان يحقّ للموظفين بمختلف مراتبهم بدءاً من الوالي وانتهاءً بالآذن، مروراً بالشرطي والقاضي والمعلّم وجابي الضرائب. ولأنّ اسمه (يوسف) صار الناس يسموه احتراماً (يوسف أفندي) حتى وإن لم يكن لهم من حاجة عنده.

كان يعيش في بيت عربي كبير تديره منذ وفاة زوجته أختٌ غير شقيقة أضاعت عقلها واعتادت، كلما عادت من «غيبتها»، أن تدعو الله مائة مرة أن «يرفع إلى قمم الشهرة والمجد» أخاها الغالي غير الشقيق .

في المساء، وهو عائد من السوق حيث تقع متاجره، كان عمي يمشي في الحارة مشية من يحمل على كاهله كل هموم الدنيا .

«يوسف أفندي. . . شخصية !»، كان الناس يتهامسون لدى مروره ويحيّوه بانحناءة رافعين يدهم اليمنى ثلاث مرات، فيردّ التحية دون انحناءة رافعاً يده اليسرى ثلاث مرات.

حال وصوله إلى بيته، كان يتعشّى شوربة عدس أو شوربة

فاصولياء بيضاء ويشرب البابونج بناءً على وصفة صديقه الطبيب ويستغرق في إعادة قراءة أعماله الكاملة.

لا أخفي عليكم أنّ (يوسف أفندي) كان يمارس الكتابة في ساعات فراغه، وعنده منها ما يكفي ويفي.

قبل تفرّغه لجنس أدبي اشتهر بفضل المدعو (جاك بوسوييه)[1]، كان قد جرّب نفسه في خطب التدشين وكلمات الترحيب والـ«لن أطيل عليكم» في حفلات الخطوبة. بل وألّف بضع قصائد حَفِظْتُ منها هذين البيتين اللذين أوردهما هنا، وأنا أعتقد، ولا فخر، أني لا أخون بنقلهما حرفاً أو فكرة :

يا قمر... أنت شمسي !

يا ليل... أنت فجري !

لكن، كما أسلفت القول، كان (يوسف أفندي) مختصاً في التأبين. حال توقيع الطبيب على شهادة الوفاة كانت الناس تهرع إليه، وذلك قبل أن تستدعي الحاخام أو تُخطِر حفار القبور (حسب الأعراف يتم الدفن في نفس اليوم الذي دعا فيه الله خادمه أو خادمته إليه).

- يا يوسف أفندي، كامل المسكين مات.

- كنت أتوقع ذلك... ها أنا قادم...

يفرد عمي عندئذ على مائدة الطعام محتوى الأكياس الأربعة التي خاطتها له زوجته المرحومة (جميلة) من «روب دي شامبر» جدتها، ويبحث في هذا الكوم عن خطبة التأبين الأنسب لذاك أو

---

(1) جاك بوسوييه (1627- 1704) واعظ فرنسي اشتهر بمواعظه وتآبينه الفصيحة.

تلك التي أصبح اسمها مدرجاً في سجّل موتاه. كان هناك خطب للنساء والرجال، للشباب الذين غادرونا «قبل أن يذوقوا ثمار الحياة»، والمسنين الذين «تركوا مثالاً نحتذي به»، لأولئك الذين ولّوا «وقد طال عبورهم لهذه الدنيا»، والذين قاموا بـ«*متشفون*[1] كثيرة كُثر ذرية (إبراهيم)». لقد حسب (يوسف أفندي) حساب كل شيء. كانت كل خطبة من خطبه التأبينية تبدأ دوماً بتلك العبارة التي استعارها (بوسوييه) نفسه من سِفر الجامِعَة قبل أن يستحوذ عليها عمي بدوره : «باطل الأباطيل، كل شيء باطل»، وتنتهي دوماً بذلك الوعد الجسور بعض الشيء : «لن ننساك أبداً»، بحيث يمكن تكرار الـ«أبداً» مرتين أو ثلاث حسب مقام وثروة الفقيد .

لكن، مهما كلفني الأمر، فليس في وسعي أن أوحي بأنّ عمي هو المؤلف الحقيقي للنصوص التي يلقيها أمام جمهوره. الحقيقة أن مؤلفاته هي مزيج من عبارات مقتطفة من صحيفتي العاصمة اللتين تنشران الخطب الكاملة التي ألقتها شخصيات مرموقة في عالم الفن والأدب والسياسة أثناء تشييع شخصيات لامعة في عالم السياسة والأدب والفن. ورغم أنّ خطيبنا كان يعرف خطبه التأبينية عن ظهر قلب، إلّا أنّ الخبرة علّمته أنّها تؤثر أكثر في المستمعين، وغالبيتهم أميين، عندما يبدو وكأنه يقرأها.

يقول مثل قديم أنّ «خيرة الناس ترحل أولاً». لو صحّ هذا المثل، فإني لا أرى اليوم ما يمنعني من الاعتزاز بكوني ابن ابن أخ رجل وضع موهبته وفصاحته في خدمة الخيرة، خيرة أصدقائه

---

(1) ميتشفون هي الأعمال الحسنة (المؤلف).

وعلاقاته ومعارفه وجيرانه، الذين رثاهم كـ«أغصان قُطِعَت» و«مزهريات كُسِرت» و«سنديانات صُعِقت».

كان عمي حقاً شخصية !

*

في صباح يوم من أيام الشتاء، انتشر خبر موته بسرعة البرق... أيجوز أن يرحل دون كلمة وداع؟ كان لا بدّ أن نجد له بديلاً جسوراً بما فيه الكفاية ليقوم بدوره كمؤبّن دونما تحضير. اجتمع مجلس الطائفة لدى نائب الرئيس، وبعد مداولة قصيرة قرر أن يستعير من أخت الرئيس المأسوف عليه جداً إحدى خطب التأبين التي أورثها إياها. وبعد نصف ساعة، عاد المعلم الذي كُلِّف بهذه المهمة الشاقّة لاهثاً وفي جيبه التحفة الأدبية.

- أنت من سيقرأها، هذا ما قرره مجلسنا بالإجماع، أعلمه نائب الرئيس.

ما عاد من الممكن إضاعة دقيقة واحدة، ولم يلقِ المعلم نظرة واحدة على النص الذي لا يعرف منه حتى أول كلمة.

غادر الموكب الحارة تحت مطر ينذر بيوم القيامة. فتبادر إلى ذهن الذين يقرؤون في تقلّبات الطقس: «انفتحت السماء لاستقبال روح يوسف أفندي».

وبعد مسير طويل، طويل جداً، في الوحل وفي طرقات أشبه بالرَدَغات، اجتزنا بوابة المقبرة ووضع قُدامى دار الأيتام النعش المحمول على حافة القبر.

ما عدنا نسمع سوى هزيم العاصفة البعيد والخافت.

اتخّذ «البديل» مكاناً بين حاخامين بالقرب من حفّاري القبور، وضع نظارته، أخرج من جيب معطفه المبلل خطبة التأبين المكتوبة بيد من تُكَرّس له اليوم، وبصوت يخنقه نحيب مصطنع، ومباشرة بعد عبارة «باطل الأباطيل» المحتّمة الذكر، ألقى كلمة الملك (لموئيل) التي أوردها (سليمان بن داود) ملك إسرائيل في حِكَمَه :

نساء كثيرات قمن بأعمال فاضلة

أما أنتِ فتفوقيهن جميعاً

الحسن خدّاع والجمال عبث

والمرأة المتقية للرب هي تلك التي تُمدح

أوقعت هذه الحِكَم المعلّم في ارتباك كبير. إذ تنبّه أثناء القراءة أنّ الأخت غير الشقيقة أعطته خطبة كان أخوها غير الشقيق قد خصّ بها «الزوجات والأمهات المثاليات». لكن، لحسن الحظ، لم يلحظ الحضور شيئاً .

أما عمي، فلم يتقلّب في قبره لأنه لم يكن فيه بعد.

انتهينا من *الكديش*، صلاة الأموات، تحت سماء متوعّدة، وعدنا إلى الحارة بقلوب يعتصرها الألم، لكن بضمائر مرتاحة. رحل (يوسف أفندي) مزوّداً بأجمل ما عنده من خطب التأبين. وهل كنّا لنتمنى له أفضل من ذلك ؟

سمك ومزامير

اعتادت حفنة من المؤمنين أن تتجمع حول الحاخام (مسلتون) في باحة الكنيس بعد صلاة المساء لتسمعه يُفصفص صفحة أو صفحتين من كتاب ديني يدخل في إطار برنامجه المعتاد، إذا صحّ التعبير، ويعالج الفروض والواجبات التي يمليها الدين على شعب العهد.

معظم السامعين، والله أعلم كيف كانوا يتدبّرون أمرهم حتى لا يموتون جوعاً، كانوا متعطّشين للتّأمل والعلم التلمودي. إنما الله يرزقهم لقمة العيش أو لا يرزقهم. وإذا ما نسيهم في بعض الأيام، تبارك اسمه، كانوا يعوِّضون بالغذاء الروحي.

كان الحاخام (مسلتون)، الملقب بالقارض، يدعم تعليقاته المعقدة والمشوَّشة باستناده وبكل تواضع إلى ما سبق وكتبه عن الفروض والواجبات إياها حاخامات آخرون قوارض أكثر منه. وكان يزعُم أنّ هؤلاء المفسرين الفطاحل يهمسون له مسبقاً أحياناً بأجوبة الأسئلة التي ستُطرَح عليه، لا بل يُنبئونَه ما أن يخلد إلى النوم بكل المصائب التي قد تصيب الحارة، كما أصابت الضربات العشرة مصر الفراعنة، في حال عدم إقامة *يشيفا* (مدرسة دينية) يتعلم فيها أكفئ أولادنا روائع التوراة.

- الويل لكم ! الويل لكم !. . . كان يصيح مشيراً بإصبعه إلى

اثنين أو ثلاثة من وجهاء الحارة الذين تهوّروا إذ لم ينسحبوا إلى بيوتهم مباشرة بعد آخر *آمين* في الصلاة. . . إني أناديكم اليوم وأدقّ ناقوس الخطر لأقول لكم أنّ لصبر الله حدوداً. إنّ تربية أولادكم نور عيونكم موكلة إلى رجال ونساء تخرّجوا من *باريز* مدينة الهلاك والدنس والرجس. ابكوا، ابكوا على حملاننا التي تُقدَّم موثوقة الأيدي والأرجل لهؤلاء الرعاة الدنيئين. ابكوا على أنفسكم إذ أنّي أرى الصاعقة التي ستهلككم آتية.

كان ناطور تلك الصاعقة الهالكة التي لن ترحم أحداً حسب زعمه، يكرر اللازمة نفسها مساءً بعد مساء. فيرجو ويتوّعد ويأمر وينتف بعض شعر لحيته المتساقطة ويمرر يده على قلنسوته للتأكد بأنّها مازالت قابعة على رأسه ويناشد أصحاب النيّات الطيبة بالتبرع لإقامة مدرسة تلمودية.

في النهاية، وبعد طول عراك، تحققت أمنيته وأُعلِن عن افتتاح *يشيفا* جميلة. هللويا !

ويوم بلغت الثامنة عشرة، وقد نلت لتوي شهادة البكالوريا، طلب منّي عمي الكبير، أو بالأصح أمرني، أن ألتحق بمجلس تلك المدرسة الإداري حيث يشغل هو منصب المؤسس والرئيس والراعي.

- ستشرف على تنظيم شؤون مدرستنا الجديدة وستجهزها بوسائل تعليم *مودرنو* (كذا !)، قال لي وهو يقودني باتجاه الكنيس الكبير.

فهناك، في مستودع من مستودعات بيت الله، حيث كدّست خمسة أجيال من القوّاسين أتلاداً مهترئة وشمعدانات ملوية وبقايا شمع ذائب وكل ما وهبته عائلات قرّحها البكاء من كراكيب ذكراً لفقيديها الغوالي، تمّ إعداد صفّين لقرابة ستين طالباً.

- سترى بعينك، سترى بعينك... كان عمي يكرر طول الطريق متشوقاً ليريني مدرسته. مدرسة حقيقية بمناضد وكراسٍ ومحابر ومكاتب للأساتذة وألواح سوداء ودزينات طباشير وحتى إسفنجات للمحي... مدرسة كمدارس ***الفرنساوية***.

كان يتعرّق من شدة السعادة. فأحد لم يأخذ مدرسته على محمل الجدِّ قبل أن يمسك هو، يوسف أفندي، المؤسس، زمام الأمور.

- عدد معلمينا النوابغ ثلاثة. الأول بارع في التوراة وبإمكانه تلاوة كل المزامير عن ظهر قلب. بل وقيل لي أنه تشارط يوماً على استظهار نشيد الأناشيد بأقل من ربع ساعة، وبالمقلوب! ***والبروفصور*** الثاني طويل الباع في تفسير أسرار ***القَبَالة***[1]. وأكثر صفحات هذا الكتاب باطنية أوحيت له في المنام، ليلة عرسه. هذان المعلمان من حلب وهي كما تعلم من أهم مراكز تعليم التلموديين. أما المعلم الثالث، فمهمته ترسيخ مبادئ لغتنا العربية الأم في أذهان طلابنا. وبالطبع قبل تعيينه، حرصنا على أن نطلب منه قراءة مقالة من جريدة ***ألف باء*** الشهيرة أمامنا، وقد قرأها! لكنّي لن أقول لك المزيد. سترى بعينك، سترى بعينك...

كنّا قد وصلنا إلى مدخل الكنيس الكبير. وكان مجلس إدارة المدرسة بأكمله بانتظارنا. ألقيت «صباح الخير» على الصيرفي (لارنادو) وتاجر الحرير (روته) وعلى مواطنَي ***البروفسورَين*** اللذين كانا قد اغتنيا بالمضاربة على أسعار القمح قبل شهر من غزو الجراد (لقد توقعا هذا الغزو السعيد كونهما راقبا النجوم ليلة كاد الحوت

(1) القبالة هو التفسير الرمزي أو الصوفي للتوراة.

أن يبتلع القمر[1]. كما حييت صاحب الدَخْل الذي لم يتوقع إفلاس مصدر دَخْله الرئيسي وصار تالياً بلا دَخْل، والسمّان الذي يكّن له عمي كل الاحترام لكرمه وقامته الفارعة، وحييت أخيراً (لشبونه) أحد ملاكي الأراضي في الحارة الذي كان بإمكانه لعب دور في إحدى مسرحيات (تشيخوف).

- سنبدأ من صف المبتدئين، أعلن دليلنا وهو يدفع باباً امتزج صرير وأنين مفاصله بأصوات نشاذ صادرة عن تلاوة جماعية للصلاة.

كما أخبرني الأب المؤسس، كانت تلك الحجرة تحتوي فعلاً على مناضد ومقاعد وطاولة وكرسي ولوح أسود وطباشير وإسفنجات للمحي. لكن كل تلك الأشياء كانت مُقصاة إلى جانب الحائط، في حين جلس الطلاب كمعلمهم على الأرض، وقد فاحت روائح العطوس والعفن والسمك المُنْتِن. فعلى مِنقل مليءٍ بالفحم موضوع على يمين ***البروفصور*** كان هناك مقلاة. وفي هذه المقلاة كان هناك سمكة ضخمة تُنهي حياتها القصيرة عابقة بالقداسة وسط مستودع الكنيس الكبير.

- ***شالوم***، قال عمي بصوت يخنقه الدخان والغيظ.

- ***شالوم*** وبركة الله، أجاب المعلم. كما ترون، أنا أحضّر غذائي...

كانت عيناه الرامشتان وفمه الأثرم ولحيته المُنَسَّلة وأنفه الأبثر وكل ما فيه يجعله أشبه بشخصية هربت من متحف الرعب.

---

(1) كان الخسوف يُفسر على أنه اختباء القمر الخائف من أن يبتلعه الحوت (المؤلف).

أخذ الرئيس الممتقع غضباً يجول بنظراته المستنكرة بين كوم المقاعد والمناضد والسمكة المتناثر منها الزيت التي يقلّبها الحاخام[1] بملعقة خشبية طويلة يستخدمها أحياناً كعصا لتأديب طلابه... الكسالى.

هذه هي إذاً المدرسة *المودرنو* !... طلب عمي من الأولاد أن يخرجوا للعب في الباحة «بدون ضجة» وتوجّه إلى «أخصائي المزامير» كما لو كان لصاً قُبِض عليه بالجرم المشهود :

- والآن يا حاخام، حبذا لو تشرح لنا لماذا لا تستعمل المناضد أو المقاعد أو اللوح الأسود أو على الأقل الكرسي الذي فصّله النجّار (مراد) على قياسك مراعياً انحناء ظهرك.

- مناضد... مقاعد... لوح أسود... ماذا تريدني أن أفعل بهم، أجاب المعلم (شحادة) بلهجة واثقة. لقد درّست أربعين عاماً في حلب وعلّمت مئات التلموديين دون أن أحتاج لأي من هذه الأشياء المعيقة وغير المفيدة. الواحد يرتاح أكثر عندما يجلس على الأرض. ثم أنّ أجدادنا لم يعرفوا لا الكراسي ولا الألواح السوداء وهذا لم يمنعهم من الأكل، كما سأفعل أنا الآن، أو الشرب أو الصلاة...

فهمس في أذنه أكبر أعضاء المجلس الإداري سناً :

- ألا تظن أنّ زوجتك أقدر على تحضير سمكتك في البيت بدلاً من...

- أبداً ! قاطعه *البروفصور*. زوجتي، وهي الثالثة إذ أني ترمّلت

---

(1) الحاخام هو عالم دين أو حكيم (المؤلف).

مرتين، تتحلى بكل صفات المرأة التي تخشى ربها. أما بالنسبة لقلي السمك. . .

- ما رأيكم أن ننتقل لصف آخر ونرى ماذا يفعل المعلم هناك؟ اقترح الصيرفي.

تركنا *البروفصور* الفطحل مع سمكته وذهبنا لنسلِّم على أستاذ القبالة.

لم يكن القابل يفعل شيئاً. كان ينتظرنا وطلابه في صفه وهو يمص سكّرة.

- ماذا تأكل؟ صرخ فيه الرئيس الذي كان في أشد الحاجة للتنفيس عن نفسه.

- لا . . . لا شيء يا حضرة الرئيس. لا آكل شيئاً . . .

- ماذا تمص إذاً؟

- لا . . . لا أمص شيئاً يا حضرة الرئيس. إنها . . . إنها عادة. . . مذ كنت في الثامنة من عمري وأنا أمص، ليس ذنبي. . .

- على الأقل أنت لا تقلي سمكة أثناء شرحك للتلمود. . . قال الرئيس.

- يا لطيف! سمكة لي وحدي! معقول؟! بما أكسبه هنا؟ وعندي أربعة عشر ولداً أصرف عليهم . . .

- عندك أربعة عشر ولداً؟

- إيه نعم! رزقني إياهم الله. . . ثمانية صبيان وست بنات. سبحان اسمه. . .

قال السمّان بصوت أخن :

- لقد جاء في الكتاب : «*كنت شاباً وشخت، ولم أر ابن بار يلتمس الخبز...*»

- هذا صحيح ! هذا صحيح ! قال الأب السعيد معرباً عن موافقته. وإن كان أولادي يشتهون الخبز في بعض الأيام... لكن هل أنا مؤمن كما يجب ؟

ثم التفت إلى تلاميذه وفتح ذراعيه ليدعَ خمساً من أولاده الأربع عشر يأتون إليه.

- ... عندي أيضاً ثلاثة غيرهم في هذه المدرسة المقدسة. وهم يتعلمون الصلاة بعصا معلمي الفاضل الحاخام (شحادة).

للمرة الأولى منذ بداية هذه الزيارة العجيبة، تجرّأت وطرحت سؤالاً :

- أتُدرِّس النصوص المقدسة منذ وقت طويل ؟ سألت الوالد الذي لا يكل من الإنجاب.

- أنا ؟... أبداً ! أنا ما زلت مبتدأ. ورغم سنواتي الخمسين التي سأبلغها في العنصرة، فإن خبرتي لا تتجاوز الثلاثة أسابيع، قال وهو يمضي في المصّ.

- وماذا كنت تعمل في حلب قبل قدومك إلى هنا ؟

- كنت أبيع الأواني... صحون كبيرة، صحون صغيرة، فناجين... مهنة نكدة. كان نصف ما أجنيه يروح بالكسر. لذلك، عندما علمت من حاخامنا الكبير، الكبير كل الكبر، أنكّم تبحثون عن أخصائي في التوراة، رفيع المستوى، كتبت لمواطِنَي الحاضرَين هنا، الأعضاء في لجنتكم، وأنا فخور بتوجيه التحية لهما، راجياً إياهما أن يدعما ترشيحي للمنصب.

من أحسن لأحسن ! أخفق (يوسف أفندي) للمرة الثالثة بلف سيكارته التي أعتاد لفها بيد واحدة وغادر الصف دون أن يحيّي القَابِل المزيف.

- شيء مخيّب، قال لنا عندما لحقنا به إلى الباحة. تلك السمكة... وبائع الأواني الذي أصبح مدرِّساً للتلمود. كان علينا توخي الحذر... لا يجوز توظيف معلم بالمراسلة ودون معرفة شيء عن سوابقه... لكن هل هذا يعني أن علينا إغلاق المدرسة؟ طبعاً لا ! فمستقبل هؤلاء الأطفال الخمسة وخمسين رهن بها.

بات أمر لا يُحتمل.

- مستقبل هؤلاء الأطفال الخمسة وخمسين؟ فلنتكلم عن هذا المستقبل ! ابتسمتُ بشماتة وعجرفة ابن الثامنة عشر عاماً. ماذا سيصبحون عندما يتعلمون أن يرددوا كالببغاوات ما يلقنهم إياه هذان الببغاوان الآخران من تعليقات على الأسفار الخمسة وقد وظفتموهما دون تروٍ أو تفكير، وهما غير قادرين على فهم صفحة واحدة من سِفر التكوين؟

- الله أعلم ماذا سيصبح هؤلاء الأطفال لدى انتهائهم من هذه المدرسة، أجاب يوسف أفندي بلهجة تميل إلى المراضاة. قد يصبحون ذبّاحين أو أخصائيين بانتقاء أفخاذ الضأن أو نافخي خِراف أو قُرّاء *كاديش* في الجنائز أو حفّاري قبور أو خدماً في الكُنُس... لكن من المؤكد أنه سيكون لكل منهم مهنة. لذلك لا يحق لنا إهمالهم.

لا أفهم حتى اليوم كيف تورّطت في الأعمال الخيرية التي كان عمي يتفرّغ لها عندما لا ينشغل في نسخ خطبه التأبينية. المهم أني

غداة زيارة «التفتيش» التي قمنا بها، تمكّنت من انتزاع وعد رسمي من المعلم (شحادة) بالتوقف عن الطبخ في صفه.

- طيب، طيب... لا طبخ في الصف بعد اليوم. سآكل خيارة أو حبة بندورة كالشحاذ... قال بتبرّم متظاهراً بضبّ مقلاته وصحنيه.

- وبمساعدة طلابك ستعيد المناضد والمقاعد واللوح الأسود إلى أماكنهم.

- طيب، طيب... الأولاد وراء مناضدهم وأنا على كرسيٍّ وراء طاولتي...

قَبِل (شحادة) بكل شيء وقطع كل الوعود حتى يتخلص مني. بدا الأمر استسلاماً غير مشروط. ركضت ونقلت الخبر إلى أعضاء مجلس الإدارة الذين اعتادوا الاجتماع بعد ظهر كل يوم في بيت هذا أو ذاك للعب النرد. هتف عمي :

- الحمد لله ! قليلاً من الجهد والصبر وتصبح مدرستنا بمستوى مدرسة ***الأليانس*** التي دشنّها الشهر الماضي السيد مستشار المعارف العامّة مدعوماً بكتيبة من كبار موظفي ***باريز*** وعلى أنغام موسيقاهم العسكرية ونشيدهم الوطني الواعد بيوم مجد ما برح آتياً...

كان العم الكبير يتخيل نفسه أمام حشد غفير والمستشار يُقلّده وساماً، المستشار نفسه الذي قام بعد بضعة أيام من ذلك بزيارة مفاجئة لصف أو مطبخ المعلم التائب.

*

- آه ! كم كان هذا جميلاً. قال لي مساء تلك المداهمة ميشيل

طبّاع، مدير مكتبه. مشهد خارق ! السيد المستشار لم يصدق عينيه. وأنا أيضاً. . .

ميشيل كان المستشار المسموع الكلمة لدى المستشار. وكلما سنحت له الفرصة، كان يذكّرني أن لقاءنا الأول يعود إلى الوقت الذي كنت فيه طفلاً أحبو في بيت جدي.

- كان يوماً مذهلاً، سأحاول أن أرويه لك على أن يبقى بيني وبينك. . .

كنت وميشيل جالسَين في الهواء الطلق في مطعم مشهور *بالمازة*[1] الطيبة.

- اتفقنا أن يبقى بيني وبينك ؟ وصلنا إذاً في الصباح الباكر إلى تلك المدرسة (لكن أهي حقاً مدرسة ؟) برفقة رئيس مخفر الحي واثنين من مساعديه بالبذل الرسمية. ما كان الحاخامان (لكن أَهما حاخامان حقيقيان ؟) ولا المعلم الذي حاول الهرب (لكن أَهو فعلاً معلم ؟) يتوقعون هذه الزيارة. فأحدٌ لم يدعُنا. كان أكبر هذا الثلاثي الفريد جالساً على الأرض كطلابه وخلفه بلصق الحائط كومٌ من المناضد والمقاعد والكراسي. . . وكان شباك الغرفة الوحيد مسدوداً باللوح الأسود الذي كتب عليه نابغة الصف الوصايا العشر، بالعبرية طبعاً. وتخيّل ! على يمين هذا العجوز. . .

لقد هزأ بي العجوز الفاضل : «لن أطبخ بعد اليوم. . . سآكل خيارة أو حبة بندورة. . . كالشحاذ. . .» كان يمكن لميشيل إعفائي من التتمة، فأنا أعرفها أحسن منه. لكن ما الوسيلة لمقاطعة شاهد على «مشهد خارق» ؟

---

(1) بالعربية في النص.

- على يمين هذا العجوز، بين صحن وطشت، اكتشفنا. . .

- منقلاً.

- تماماً ! وعلى المنقل ؟

- مقلاة.

- وفي المقلاة ؟

- سمكة. . .

- كأنك كنت هناك. . .

- كنت. . . والحاخام قلّب سمكته بملعقة خشبية طويلة. . .

- ربما كان ليفعل لو لم تقطع شهيته رؤية البذل الرسمية. وفي تلك الأثناء، ضبط أحد الشرطيّين الحاخام الآخر الذي كان يمص سكّرة ليخفي ارتباكه. «ما نحن إلا. . . فقراء. . . في خدمة. . . الله، حوزق غاوي السمك. ونناشد ملك الفرنساويين الرحمة والرأفة. . . فكروا بأولادي الأربع عشر، تضرّع الآخر. فعندي أربعة عشر، ثمانية منهم هنا. يمكنني أن أريكم إياهم. سيدعون لكم. . .». أما ***بروفصور*** العربي، فقد غادرنا دون استئذان واضطررنا إلى تفتيش الكنيس رأساً على عقب حتى عثرنا عليه مختبئاً خلف ستارة خزانة أسفار التوراة. . . فخرج من مخبئه وانحنى ثلاث مرات أمام كلٍّ منا، مما كلّفه خمس عشرة انحناءة على الأقل، وطلب مني أن أُترجم حرفياً ***تصريحه*** إلى ***معالي السيد المستشار الكبير***. فترجمت. حرفياً : «حضرة السيد المستشار الكبير، إن كنتم تريدون مصادرة شخصي للخدمة العسكرية، فإني أتشرّف بإطلاع سيادتكم على أني من الرعيّة المخلصة لجلالة ملك الإنكليز، وبهذه الصفة يحق لي أن أرفض ارتداء زي خادم ملك الفرنساويين. . .». ثم أبرز جواز سفر مزور كان قد حصل عليه من محتال مقابل بضعة قروش.

كان الجنون بعينه ! سمكة في مقلاة وسط صف للتلمود واستغاثة بملك فرنسة وملك إنكلترة وستون تلميذاً محتجزون أو بالأصح محبوسون في قاعتين مقرفتين. . . آه ! كدت أنسى الأهم : «المؤسسون المتبرعون المحسنون» لهذه الـ. . . المدرسة... نسوا بكل بساطة التصريح عنها قبل افتتاحها، مما يشكل جنحة خطيرة تُعدّ بمثابة. . .

- . . . بمثابة تفتيش كنيس أو جامع أو كنيسة، رأساً على عقب، دون إذن خاص. . .

- اطمئن، أجابني ميشيل الذي كان قد قضى على حوالي عشرين صحناً من المازة. لا أحد ينوي مقاضاة أحد. لن نجرجر ثلاثة مهرّجين مساكين أمام المحاكم ! سيُوقف التحقيق. لكن، أضاف فوراً بين المزاح والجد، ليس قبل أن تقول لي ما الذي ورّطك أنت في كل هذا. . .

- إنه موضوع بين عم كبير وابن ابن أخيه. . . هل عندك عم كبير ؟

- لا. ولا عم صغير حتى. . .

- إذاً من الصعب أن تفهم. . .

*

لم ينتظر المجلس الإداري قيام «المستشار الكبير» بمداهمة جديدة حتى يقرر إغلاق المدرسة. وُضِعَ الحاخام (شحادة) في قطار حلب مع زوجته الثالثة ومقلاته وعاد إلى حيث كان ينتظره أولاد وأحفاد تلاميذه القُدامى. كما أُعطِي القَابِل «تعويضاً بسبب التسريح»، حسب تعبير اليوم، وعاد إلى صحونه وفناجينه.

لم يبقَ أمام يوسف أفندي سوى تدبير أمر تابع جلالة ملك الإنكليز. فاقترح عليه تسميته كاتباً عمومياً مدى الحياة. وقَبِلَ هذا بالعرض السخي «إكراماً لصديقه المُفَضِّل عليه». فأصبح كاتباً عمومياً برضى الجميع. وهكذا صار بإمكانه أن يروي لزبائنه عشرات المرات يومياً «خلافاته» الخيالية مع معالي المستشار الكبير :

- قلت له محدّقاً في عينيه : إني أحذّركم من أي مساس بشخص أحد مواطني الإمبراطورية البريطانية. . . وبهذه الطريقة أفلتُّ من الخدمة العسكرية، كان يختم كلامه.

وعندما كان يُقال له أنه لم يكن ليخشى التجنيد بأي حال من الأحوال لسبب بسيط وهو أنه ليس هناك من خدمة عسكرية في بلدنا، كان يجيب بنفس اللهجة التي يستخدمها عندما يرى نفسه أمام معالي المستشار الكبير، اللهجة المتعالية والمُسْتَخِفّة لمن يعرف أكثر بكثير مما يُعلن :

- إنّ خدمة العَلَم موجودة في كل بلاد العالم وبالتالي في بلدنا أيضا. وإذا كان الجهلة المساكين من أمثالكم لا يعرفون ذلك، فلأنه سر من أسرار الدولة. . .

*

وعاد الحاخام (مسلتون) إلى نواحه ودعواته وتهديداته ولعناته :

- الويل لكم ! الويل لكم !. . . صلّوا لتحلّ ***يشيفا*** جديدة بسرعة محل تلك التي أغلقها أعداء الله، الله يُعدّمنا إياهم ويمحِ ذكرهم إلى أبد الآبدين ويعذب أرواحهم إلى دهر الداهرين !

- آمين ! آمين ! آمين ! ألف آمين ! كان يهمهم المقتاتون بالأحلام.

أصبح عندنا نائب

ذات يوم، جاءنا (إيليا عمران) الوسيط في تجارة النفوذ والخبير بأسعار كبار الموظفين والقضاة القابلين للرشوة، معلناً عن سرّ مفاده أنه سيصبح عندنا قريباً نائب يمثّلنا في البرلمان وسيتشرّف هذا النائب بالمشاركة في انتخاب الرئيس المقبل للجمهورية. وهذا يعني أنّ صوت نائب يهودي يعادل صوت أي نائب آخر !

لم يكذب (عمران) هذه المرة. كان سرّه صحيحاً. ومجانياً. فإحدى الصحف التي تبيع بالغالي ولمقدمي أعلى العروض، جزءاً من صفحاتها للإعلانات، نشرت بالفعل في صبيحة اليوم التالي صورة قديمة جداً لـ(صبري لارنادو)[1] وتحتها عبارة «سرّي للغاية : مرشح الطائفة اليهودية للانتخابات التشريعية القادمة».

(صبري لارنادو)، ابن وحفيد وابن حفيد صيارفة، كان قد نذر نفسه هو الآخر للصيرفة مديّناً البعض ومُستديناً غالباً من البعض، تاركاً دين بضائع هنا وكمبيالة غير مسددة هناك، قبل أن ينسحب من «بنك لارنادو أخوان وأبناء» وقد تبخرت ثروته.

---

(1) ربما المقصود هو الصيرفي (يوسف لينادو)، العضو اليهودي في المؤتمر السوري عام 1919 الذي أُنتخب في الجمعية التأسيسية عام 1928 وأعيد انتخابه في مجلس النواب عامي 1932 و1936.

لكن ما أن نُشِرت صورته التي بدا فيها متأبّطاً ذراع زوجته عروساً، حتى أعرب له جميع شركائه المقامرين في البوكر والرامي والنرد عن ثبات إخلاصهم له. فكان في هذا عزاؤه عما سبق وأصابه.

بعد أن تجاوز السبعين وأخفق في كل شيء عدا في زواجه من أغنى بنات عمه وأكبرهن مهراً، آن الأوان لهذا اليهودي الإسباني الأصل أن يثأر. وصار يرى نفسه في قصر البرلمان راخياً مؤخرته على مقعد وثير حُفر عليه اسمه.

كان في ذلك استخفاف بثلاثة مرشحين آخرين طامحين للمنصب، ثلاثة مقامرين أكثر منه إفلاساً وتحرّقاً لخدمة الأمّة: (عزيز) الذي بدّد ميراثه قبل حلول الذكرى الأولى لوفاة والده و(عطّار) و(عزّور) وهما أولاد صرماية، عطّالين بطّالين، يعيشان من النصب والاحتيال.

كان (عزيز) و(عطّار) و(عزّور)، وأعمارهم بالترتيب أربعين وخمسة وأربعين وخمسين عاماً، قد شمّوا رائحة الصفقة الرابحة وأرادوا حصّتهم منها.

وبينما كان (صبري لارنادو) يحسب ما سيدرّه عليه منصبه في السنة وفي الشهر وفي الأسبوع، بلغه أن هؤلاء العكاريت، أولاد الحرام، ينوون سدّ طريق البرلمان عليه.

ما العمل للتخلص منهم؟ سؤال طرحه في مساء اليوم نفسه على كلٍّ من أعضاء لجنة دعمه.

بناءً على نصيحة الرئيس المقبل لهذه اللجنة ونصيحة عمي صاحب الرأي في كل شيء، قرر دعوة أولئك الأنذال الثلاثة إلى

عشاء ملوكي يبدأ بمائة صحن من المازة ويرافقه عرق يُقطّره آل (لارنادو) من أنبيق قديم لا يخرج من مخبئه إلا مرة واحدة في السنة ولا يلمسه أو يتنعّم به إلّا بعض المقرّبين من العائلة. ويُروى أن هذا الأنبيق الجوهرة الذي تجاوز عمره المائة عام اشتراه مؤسس السلالة يوم ولادة ابنه البكر الذي حظي بعد دقائق معدودة من طهوره على أول قطرات عرق خرجت من الأنبوب الحلزوني.

رفع (صبري لارنادو) كأسه في صحة «الأصدقاء الأعزاء القدامى» متمنياً لهم دوام الصحة والعافية، سائلاً إياهم إن كانوا جادين في «كل هذا».

- ولِمَ لا نكون جادين في كل هذا؟ أجابه المتواطئون الثلاثة بصوت واحد.

- كلّ منا سيجرّب حظه والشاطر يربح، أضاف (عزيز) وهو أذكى وبالتالي أخطر الثلاثة... ومن ثمَّ ***يا أخي***[1]، مقعد النائب هذا ليس من حقك وحدك. فعندي من الألقاب ما يؤهلني مثلك للسعي إليه. أما بالنسبة لمنافسَيْنا الآخَرَيْن الحاضرَيْن هنا، فأنا متأكد أنهما سيدرسان بكثير من التفهّم كل الاقتراحات التي قد نقدمها لهما في نهاية هذه الوليمة.

- ولكن، قال (صبري) متشاكياً، منذ تأسيس «بنك لارنادو إخوان وأبناء» وعائلتي لا تكفّ عن التضحية من أجل الطائفة ومستقبل الطائفة...

- وعائلتي أيضاً، قاطعه (عزيز) وهو يتابع بطرف عينه تحركات

---

(1) بالعربية في النص.

(عطّار) و(عزّور) اللذَين نشلا لتوهما ثلاث شوك وثلاث ملاعق فضة. اسمح لي أن أذكّرك أنّ جدي الكبير دفع نفقة كساء ثلاثة من كُنُسنا ومدرستين، وجدي، رحمه الله وجزاه على غزارة طيبته التي أغرقنا به طيلة حياته، قدم للميتم ثماني فرشات وغسّالة وآلة خياطة ومكواة. وأبي الذي لبى مؤخراً نداء ربه، لا حَرَمَني من بركاته من فوق، تكفّل بأجرة المستوصف خلال أكثر من عشر سنوات. . .

- حسناً، حسناً، أقرّ (صبري) الذي شعر أنّ (عزيز) سيكون منافساً خطراً إذا ما ترشح ضده. نحن نعرف بعضنا منذ وقت طويل، وقد كنت من أعزّ أصدقاء أبيك الذي يراك ويحكم عليك. لذلك سأحاول أن أقوم. . . لنقل بشيء ما لأجلك و. . . لأجل زميليك.

- لنكن دقيقين. . . هل أنت مستعد، نعم أم لا، أن تتقاسم معنا ؟

- أتقاسم ماذا ؟ سأل المرشَّح ببراءة مصطنعة.

- ما سيدرّه عليك منصب النائب شهرياً. لقد استعلمت الأمر. ستربح بالمحصلة حوالي الـ. . . ناهيك عن البرّاني والمساعي والتحكيمات والواسطات بشتّى أنواعها. . . إذا أحسنت تدبير أمورك، فستصفّي ديونك بأقل من سنة. . . وديوني أيضاً. . . اتفقنا ؟ نصف بنصف ؟

هزّ (عطّار) و(عزّور) رأسيهما بالموافقة وقد دوّخهما العرق.

«ما العمل للتخلص منهم ؟» تساءل (صبري) مرة أخيرة قبل أن يحلف بتراب أجداده الذين عاشوا وماتوا في إسبانية، أن يدفع نصف أتعابه لتلك الآفات الثلاثة التي أرسلها له الله في أسوأ لحظة ليعاقبه حتماً على مخالفته وصيته العاشرة باشتهائه امرأة وخادمة ابن عمه وشريكه السابق.

لكن ليس (عزيز) من يكتفي بقَسَم سكران وهو خير العارفين بهكذا قسم. لذلك طلب من (صبري) أن يوقِّع حالاً لكلّ من ضيوفه الثلاثة على كمبيالات شهرية تغطي مدة الدورة التشريعية. ومعالي (لارنادو)، نائبنا المقبل، نفّذ الأمر مكرهاً وعازماً كل العزم على أن ينكر توقيعاً ابتزّه منه غشاشان ونصّاب.

لكن هل كان قد تخطّى فعلاً كل الصعوبات؟ لا! إذ بقي عليه أن يثبت بأقصى سرعة أنّ طائفتنا تضم عدد الناخبين الذي يشترطه القانون. وهو أمر بدا بعيداً كل البعد...

- بسيطة!... قال له (أبو حبيب) المسؤول عن السجل المدني في حارتنا حيث سُجِّلَت ولادة من أصل عشرين، وزواج من أصل مائة، ووفاة من أصل... الله أعلم...

- لا يهمك يا (صبري)، سندبّرها.

و(أبو حبيب) «دبّرها». كيف؟ كان هذا سره وقد أخذه معه إلى قبره.

- والآن يجب أن تعقد اجتماعاً انتخابياً، همس له رئيس مجلس الطائفة.

- اجتماع انتخابي؟ ولماذا؟

- لسبب بسيط، أجابه الرئيس الذي لم يحضر يوماً اجتماعاً انتخابياً. في البلدان المتطورة يعقد المرشح دوماً اجتماعات انتخابية ليعرّف الناخبين بنفسه.

- لكن الجميع يعرفني هنا...

- في البلدان المتطورة، كرر الرئيس...

إذاً، قبل يومين من موعد الانتخابات، عقد (صبري لارنادو) اجتماعاً انتخابياً في الكنيس برئاسة عمي ورئيس لجنة الدعم المؤلفة من عشرات الأعضاء الناشطين ومنهم (عزيز) و(عطّار) و(عزّور)، والحاخام الكبير (ناحون) الذي كان يتساءل عن فائدة النائب، قيل له همساً أنّ النائب يشبه إلى حدّ ما عضو المجلس اليهودي الأعلى[1]. فأعلن بين عطستين من جراء العطّوس:

- الكلمة الآن لمن سيصبح قريباً عضواً بارزاً ومكرّماً في المجلس اليهودي الأعلى لبلدنا الكبير.

نهض (صبري) وسط تصفيق مؤيديه وأخرج من جيبه الخطاب الذي كان عمي قد أعدّه له واستلم ما أعطاه إياه الحاخام الكبير للتو أي الحديث والبركة.

- أصدقائي الأعزاء، اخوتي في الدين، اخوتي الأعزاء، بعد تردد طويل في طلب أصواتكم قررت وإنْ كنتُ غير أهلٍ لهذا الشرف أن أكرّس كل دقيقة مما تبقى لي من عمر لأحاول أن أخدم. . .

- بعون الله، صرخ مشاغب.

- معلوم، أجاب (صبري) وقد ارتبك قليلاً من هذه المقاطعة. كل ما سأفعله من أجلكم سأفعله بعون الله. . . واجتماع هذا المساء ما كان ممكناً بدون عون الله.

- ليس أي إله. إله (إبراهيم) و(إسحق) و(يعقوب). . . أضاف المعارض.

---

(1) Sanhedrin: مجلس قضائي أسسه العبرانيون في فلسطين وكانت له الكلمة العليا فيما يخص شؤون اليهود في العهد الروماني.

- إلـه (مـوسـى) و(هـارون) و(داود) و(سـلـيـمـان)، زاد عـلـيـه مشاغب آخر أكثر شراسة كان قد وعد نفسه في طريقه إلى «الحفل الانتخابي» أن يثأر لثلاث إهانات أنزلها به الصيرفي السابق عندما رفض له ثلاث كمبيالات بفائدة، كل مقاطعة بكمبيالة، وهو لم يزل في أول واحدة.

- أصدقائي الأعزاء، اخوتي في الدين، اخوتي الأعزاء، إن كنت أقف أمامكم هذا المساء. . .

- الأَوْلَى بك أن تقول لنا لماذا لا نراك أبداً في بيت الله هذا. . .

- ستحكمون عليّ من خلال أفعالي.

- الله والله وحده يحكم على أفعالك. . .

- إله (إبراهيم) و(إسحق) و(يعقوب). . .

- و(موسى) و(هارون) و(داود) و(سليمان). . .

- أصدقائي الأعزاء، اخوتي في الدين. . .

- قل لنا لماذا لم تعد صيرفياً ؟

كانت هذه ثاني مقاطعة للمُهان.

أُحرِج (صبري لارنادو). انطلقت الأسئلة والمقاطعات العدائية من كل الجهات. فاقتلع عمي نفسه من مقعده، هو الذي لم تعوِّضه رئاسة هذا الاجتماع الانتخابي عن الرغبة في إدارته لصالحه، وتقدّم إلى حافة المنصّة وخطب في الجمع وبصوته رعشات خطبه التأبينية :

- لا تنسوا يا أصدقائي الأعزاء أنّ مرشحنا الذي لم ينجح بعد في قول جملة واحدة من خطابه الجميل جداً، سيمثّل في البرلمان. . .

- بعون الله...

- بعون الله، إحدى أقدم وأهيب الطوائف اليهودية في العالم. فهنا، في هذه الحارة، عاش بعض ألمع علماء القَبّال. وهنا، في هذا الكنيس، حيث نجتمع اليوم، قام (رابي ماير)[1] بأول وأعجب معجزة من معجزاته التي لا تعدّ ولا تحصى، إذ جعل الماء يتدفق، بضربة من عصاه، في بحرة الطهارة التي كان قد مضى على جفافها عامان وأربعة أشهر وثمانية أيام...

قام (إلياهو) وهو واعظ قصير وغليظ منح نفسه لقب «المُبشّر»، ولم نسمعه يتكلم بعد، وطلب من (خليل) و(خليلة) الملقبين لسبب ما بـ«برميل وبرميلة» أن يساعداه على رفع نفسه فوق أكتافهما ليتمكّن من التعبير عن سخطه ويكذِّب هذا التحرّيف السافِر للحقيقة.

- هذه المعجزة هي معجزة كاذبة. وما قصة الماء النقي الذي تدفق عند الطلب إلا إهانة لذاكرة (رابي ماير)... صرخ مشيراً إلى عمي، الشخصية الكبيرة، وكأنه مجرم.

سكت لحظة ليزيد من اهتمام السامعين ثم أضاف ضارباً بقبضته على رأس (خليل) و(خليلة):

- سأكشف لك حقيقة يا يوسف أفندي تمنعك من الآن فصاعداً من استخدام اسم *رابي ماير* لأهداف انتخابية. هذه الحقيقة هي التالية: *رابي ماير* لم يكن عنده عصا. ولمزيد من الدقة فإني أتوجه إلى حاخامنا الكبير المُبَجّل وأضيف بأن...

---

(1) رابي كلمة آرامية تعني معلم وتستخدم لقباً لعالم الدين. و(رابي ماير) اسم عالم دين شهير عاش في القرن الثاني.

قاطعه الحاخام الكبير الذي أفاق لتوه من غفوته فرفع الجلسة وقال خاتماً :

- لنصلِّ جميعاً من أجل نجاح مرشحنا الوحيد. ليمنحه الله القوة والشجاعة لأداء مهمته. آمين !

*

انتُخِبَ (صبري أفندي لارنادو) بالإجماع، بأصوات الحاضرين والغائبين والأحياء والأموات والمختفين والمغتربين والمغادرين دون ترك عنوان.

كلما مرّ ناخب أمام صندوق الاقتراع، وهو عبارة عن سلة قش، كان يُخَيَّر بين قارورة زيت وكيس أرز أو طربوش معثّث بعض الشيء... مع الرجاء بمعاودة المرور.

وكان الجميع يعاود المرور أمام سلة القش...

اللّعنة

هذه القصة اللامعقولة هي قصة حقيقية. أنقلها عن (زكي رحماني) الذي رواها لي صباح يوم جمعة في مقهى (أبو عبّاس) المُطلّ على (نبعة البغال) حيث ترتوي الجمال.

كان (زكي رحماني) من أكثر رجال طائفتنا شعبية وغنىً، وهذه قد تفسر تلك. كان يتدرّج نحو الثمانين قرير العين هازئاً من كل شيء ومُكْثِراً من الشراب «مادام في الوقت متسع»، حسب قوله.

رغم كونه الرئيس الفخري «لجمعية الحفاظ على أماكن العبادة»، فقد كان قليل التردد على هذه الأماكن. وكان يردّ بتأفف على كل من يجرؤ على الاستغراب من ذلك قائلاً أنه سبق وأمضى في الصلاة ساعات لا تحصى، وما عاد يرغب في الاستمرار بإزعاج الله في بيوته.

وكان يضيف :

- وبعد، لم يعد لدي ما أطلبه منه وأنا بهذا السنّ، اللهمّ إلا مساعدتي حين يؤن الأوان على أن أعيد إليه أمانته بسلام. وهذا هو الالتماس الأخير الذي أقدمه له كل مساء عندما أقول لنفسي مغمضاً عينيّ قبل أن أنام بأنّي قد لا أرى حُمرة الفجر ثانية.

بما أنّ اسم أكبر أبنائه السبعة (جميل)، كان لقبه (أبو جميل). كما لُقِّب بـ(زكي القاضي) لأنّه كان مستعداً دائماً لحل نزاع وتقديم

نصيحة، «من باب الخدمة» ليس إلّا، لمن يسأله أو لا يسأله. وهكذا تمكّن غير مرة من إعادة زوج ضال إلى بيته ومنع امرأة ركبها عفريت من ارتكاب خطيئة مميتة بهجر عائلتها.

إذاً، في ذلك الصباح، عرض عليّ (أبو جميل) اتفاقاً : إن رافقته إلى السوق، يأخذني لعند (أبو عبّاس) ويروي لي بأدق التفاصيل المشهد «الفظيع» الذي شهده قبل أيام قلائل من زواجه أمام ملحمة (ماير أطش). ماير الملعون. مشهد حُفِر في قلبه وذاكرته وضميره، حسب تعبيره.

كان (زكي) آخر شاهد حيّ ممن شهدوا ذلك المشهد الذي لم يكن أهل الحارة يتحدثون عنه إلا همساً، متمتمين «الله يجيرنا ويحفظنا»، والذعر بادياً على وجوههم. وعندما كان يقبل أن يرويه أمام أبناء جيله ممن كان حلولهم محلّه ممكناً يوم «وقعت الواقعة»، فإن روايته كانت تتوافق في الجوهر مع تلك التي تُروى شتاءً حول مواقد نُثِر عليها الملح لإبعاد الشر.

لكن، لأسباب ليس لنا في كشفها هنا، ما كان (زكي) يقول كل شيء، وظل يشوّقني ويُسمّعني أنّي في يوم من الأيام، إن شاء الله، سأعرف كلام الختام. إنه حقاً معلم في التشويق !

إذاً، تَبِعته دون أن أتردد كثيراً ودون أن أثق كثيراً بوعده. فـ(أبو جميل) كان مخادعاً لدرجة يصعب فيها تصديقه. لا يهم ! حتى وإن مثَّل عليّ تمثيلية الصداع أو التعب أو الإرهاق، أكون على الأقل قد استمتعت بسماعه يسترجع ذكريات الأيام الحلوة[1] : لقاؤه الأول

---

(1) يستخدم الكاتب تعبير la belle epoque وهو تعبير يشيرعادة إلى زمن الرخاء الذي شهدته أوروبة في بداية القرن العشرين.

بزوجته عفيفة، ولادة ابنه البكر جميل، عقده لأولى صفقاته التجارية الرابحة، الخ.

بعد التوقف لدى ثلاثة أو أربعة تجّار اعتاد التردد عليهم، امتلأت سلال القش بسرعة «تسريع الصورة على الشاشة» ولم يعد أمامنا سوى أن نحمّلها على ظهر مُعتّرٍ يتعيش ببقشيش ضئيل لقاء توصيله الأغراض إلى البيوت.

وهانحن جالسون في مقهى (أبو عبّاس).

- هذا المقهى الذي تفوح منه رائحة الروث بعض الشيء هو ملتقى العربْجية، قال لي (زكي). ومن هذه النافذة المطلّة على (نبعة البغال) يناديهم زبائنهم فيضطرّوهم إلى التوقف عن لعب النرد. إني أعرف الجميع والجميع يعرفني. . .

- لنَعُد إلى قصتنا. . .

- قصتنا. . . طيب !. . .

وضع (أبو عبّاس) أمامنا ***شفتَي***[1] قهوة الأهلاً وسهلاً وأخرج (أبو جميل) مِنشقته من جيب قنبازه.

- انتهينا من السوق وأنت وعدتني أن. . . أم ستدّعي أنك فقدت ذاكرتك ؟

- أبداً، أبداً. . . سأفي بوعدي. لكن اترك لي بعض الوقت لترتيب. . . كل هذا. . . ولا تقاطعني. إذ تكفي كلمة واحدة لقطع حبل ذاكرتي الضعيفة.

---

(1) بالعربية في النص.

فوعدت وطلبت له **شفة** ثانية.

- إذاً. . . قال (زكي) وقد فقد مِنشقته.

ولكنها كانت قربه، على الطربيزة، بين فنجانينا. فأشرت له عليها.

- كيف رأيتها؟ المِنشقة ملعونة. تحسبها في الجيب. . . وإذ هي في الطربوش.

كان ليتذَرّع بأي شيء حتى لا يتكلم عن (ماير) الملعون.

- يا (أبو جميل)، مازلنا في. . . «إذاً».

- طيب. . .

- أريد أن أعرف المزيد عن هذا اللّحام.

فتح (أبو جميل) مِنشقته وأغلقها ثم فتحها ثانية وقرّبها من أنفه وعطس ثلاث مرات قبل أن يجيبني.

- سأروي لك القصة كما شهدتها. فقد كنت هناك. ورأيت كل شيء وسمعت كل شيء. افتح أذنيك جيداً، فهذه آخر مرة يقفز فيها (أبو جميل) هكذا قفزة في التاريخ. . . حدث ذلك قبل ستين سنة. كنت في التاسعة عشرة وخاطباً (عفيفة). وإذا لم تخنني ذاكرتي، فقد حدثت هذه القصة بعد فترة قصيرة من قصة الشابين المسكينين اللذين فقدا النطق فجأة لأنهما شهدا زوراً أمام المحكمة الحاخامية. لكنّ عقاب (أطش) اللّحام كان أفظع! لم يكن هذا اللّحام ليحسد أحداً على شيء. كان غنياً وقوياً كالثور وملحمته من أكثر ملحمات الحارة زبائن. لكنه لم يكن يستحق النعم التي أسبغها عليه خالقه. فقد كان متعجرفاً، وقحاً، دائم الشتيمة، وما كان يطيق رؤية فقير أمام دكانه.

كان يصرخ دوماً «المقمِّل ينكشح من هنا»... «ابتعد عن رأس الخروف هذا كي لا يهرب»... «حتى خِرافي الميتة تقرف من رائحتك، رائحتك الفقر والفقر كريه الرائحة»... المسكين! أكان ليعرف أنّ كل إهانة يوجهها إلى هؤلاء البؤساء تُسجَّل فوراً على حسابه لدى الله حيث من العبث البحث عن *ميتسفا* واحدة لصالحه؟

أشار (أبو جميل) بإصبعه للقهوجي على فنجان قهوته، فسكب له هذا *شفة* ثالثة.

- أعرف أني أكثرت بشربي *شفة* ثالثة. لو صدّقت طبيبي، فإني سأدفع ثمن هذه التجاوزات بشكل أو بآخر، عاجلاً أم آجلاً. العرق زائد القهوة زائد حلويات كنائني... كل هذا سيُنقص من عمري سنة أو سنتين...

أخذ فنجانه واشتمه طويلاً قبل أن يبلع *شفته*:

- نكهة القهوة هذه تُسْكِر كنظرة (سالومة)[1]. أعتقد أنّي سأستسلم لنداء *الشفة* الرابعة.

- أحب أن ألفت نظرك إلى أنّي لم أقاطعك وأنك أنت الذي قطعت روايتك. وهاأنا أنتظر التتمة، قلت له.

- وصلنا إذاً إلى يوم ألحق (ماير أطش) العقاب الأعظم بنفسه. واليوم، بعد ستين سنة، أتساءل إن كنت أنا نفسي الشاهد عما سأرويه لك أم إن كان كل هذا كابوساً. ومع ذلك فأنا أكرر لك أن هذا المشهد بقي محفوراً في قلبي وذاكرتي. ذهبت إلى الملحمة ككل

---

(1) سالومة هي ابنة هيروديا، وقد رقصت أمام هيرودوس الذي أُعجِب بها فمنحها رأس يوحنا المعمدان.

يوم جمعة لأجلب أفخاذ وأضلاع الخروف التي كان أبي قد أوصى عليها بالأمس (كنّا عشرين شخصاً على المائدة، عدا ضيوف الغفلة). كان هنالك ستة زبائن قد وصلوا قبلي ينتظرون دورهم. عرفت بينهم الحاخام (أبو العافية)، أحد أكبر *حسيديين*[1] عصرنا. كان فقيراً كأيوب يعيش زهيد العين. رجل قديس. ماذا كان يفعل أمام ملحمة (ماير)؟ ألا يعرف أن هذا لا يتنازل أبداً ويخدم محتاجاً حتى وإن كان من أكبر الأتقياء سناً وأكثرهم وقاراً؟

- «ما هذا؟!» عوّى (ماير) عندما مدّ له الحاخام يده بثلاثة قروش كان قد أخرجها لتوه من قعر جيب قفطانه.

- «أريد أن تبيعني شقفة لحم صغيرة لوجبة يوم السبت. شقفة صغيرة جداً من أي شيء... وأكرر: أن تبيعني»، قال واضعاً قروشه الثلاثة قرب كوم عظام.

- «شقفة صغيرة من أي شيء؟! ما رأيك بقطعة من هذه؟» صاح اللّحام وأدار ظهره للحاخام كاشفاً عن... مؤخرته.

كأنّ (ماير أطش) دنّس سِفراً من التوراة. أخذ الرجل القديس يبكي من شدة العار. لكنه تمالك نفسه بسرعة، بسط يديه، رفع عينيه إلى السماء كما يفعل في بداية وعظاته، وصرخ بصوت عظيم لم نعهده من قبل، صوت... ساحر مُتَكَهِّن:

- «الويل لك يا عديم القلب! الويل لك يا مسكين يا عديم الرحمة! الويل لك يا من تُهين (إلوهيم)[2] من خلال أفقر مخلوقاته! حلّت عليك اللعنة وعلى بيتك ولتحلّ اللعنة على نسلك

---

(1) «أهل الورع» وهم جماعة من اليهود المتمسكين بالشريعة.

(2) إلوهيم اسم لله في التوراة.

حتى الجيل الخامس. . . عجِّل ببيع خرفانك لأنك لن تَعُد في هذه الدنيا مساء اليوم. وأنا، أنا الذي أهنتني وأذللتني، سأصلّي لراحة نفسك».

- «لراحة نفسي؟ لكنّي حيّ وحيّ جداً. وأنت، ما أنت إلا عجوز خرفان على حافة قبره»، أجاب (أطش) وهو لم يزل يطبطب بسكينه على مؤخرته.

- «أنا العجوز الخرفان أعرف أنّ أجَلَكَ آتِ اليوم».

وانسحب الحاخام (أبو العافية) بعدما طلب منّا بصوت مغاير، صوته الدنيوي، أن نُخطِر حفّار القبور بدنو أجل (ماير أطش):

- «عجّلوا لأنّ اليوم جمعة وهذا الخاطئ المسكين سيُدفن قبل غروب الشمس».

لم تمضِ لحظات على انسحاب الحاخام (أبو العافية) حتى هوى اللّحام على ظهره. مصعوقاً. سطّحناه في الشارع على جلد خروف مدمّى وركضنا ننادي الطبيب. لكنّه وصل بعد فوات الأوان. كان (أطش) قد مات متمتماً في نَفَسٍ أخير: «شو صار لي؟ شو صار لي؟»

وكما تنبأ «العجوز الخرفان»، فقد دفناه قبل غروب الشمس.

صمت (أبو جميل). بدا نظره زائغاً كطفل أفاق فجأة من نومه.

- سأطلب **شفّة** رابعة وأمر قلبي لله. . .

صفّق، فقُدِمَت له القهوة بأسرع مما احتاجه لتناولها.

ثم همس وهو يشرق القطرة الأخيرة المتبقية في قعر فنجانه:

- والآن كفانا تحليقاً. فكرسيي الهزاز ينتظرني أمام باب داري المُزيّن بالورد. وأنا مشتاق للاسترخاء فيه.

حيّا عربجِيَين كانا يلعبان في ذلك الصباح عاشر «برتيّة» طاولة، وبكثير من التوجيب استأذن «صديقه» (أبو عبّاس) الذي حلف لنا بأننا أغلى من عينيه وأنه يفدي بشهر من عمره كل شعرة من لحية «أخيه» (أبو جميل).

*

لم نتبادل أية كلمة في طريقنا إلى الحارة. توقف (أبو جميل) في ملحمة السوق أمام نافخ خِراف[1] بدا من بعيد كزمّار قُربة.

وقال لي (زكي القاضي) :

- سأؤمنك على سر. هذا الرجل صاحب الوجه الملطّخ بالدم هو ابن حفيد ماير الملعون. سيموت شاباً كمعظم النافخين. من الرئة. . . ولم تزل اللعنة في الجيل الثالث. إذا كان الحاخام أبو العافية يستطيع أن يسمعني من فوق لرجوته أن يتشفّع لهذا البريء.

مال على (ياسوفه)، وهو اسم نافخ الخِراف، وسأله عن حال أولاده.

- مستورة. . . والحمد لله. لن ينقصهم شيء مادمت أمارس هذا العمل. كلهم بصحة جيدة. . . يعني. . . ليس كلهم. . . الصغير يشغل بالنا. صار له أكثر من ستة أشهر وهو يسعل.

رافقت (أبو جميل) حتى باب بيته المزيّن بالورد. فقال لي :

- سمِعْتَ (ياسوفه). صحة الصغير. . . من يعرف العوارض، يفهم أن اللعنة صارت تحوم حول الجيل الرابع. . . الله معك !

---

(1) يضع نافخ الخراف فمه على جرح عُمِل في حافر الخروف وينفخ فيه بكل قوته لتسهيل سلخ جلده، وقد يلفظ النافخ نفسه الأخير أثناء عمله هذا (المؤلف).

رائحة الطيبة

اعتنق (أبو سارة) الشحاذة كما يعتنق المرء ديانة. كان يروي أنه سمع النداء ليلة عيد الغفران لمّا نُفِخ في البوق إعلاناً للمدينة والعالم[1] (عذراً على هذا الخلط الجسور) بنهاية الصوم وظهور أول نجمة. في ذلك المساء وجد شعاره «لا شيء لي» ونذر نفسه أبداً للآخرين، وخاصة لمن حكم عليهم قدر عبثي بأصوام إضافية لم تقضِ بها التوراة أو أيٌّ من مُفَسِّرِيها.

عندما عرفته، بعد مضي أكثر من نصف قرن على «نزول الوحي عليه»، كانت عيناه أشبه بشقين تنفذ منهما نظرة تغشوها دموع صغيرة تنساب على أخاديد وجهه. وكان على ظهره دوماً كشكولٌ مُنَسَّلٌ تمس ذيوله الأرض.

كان (أبو سارة) إذاً شحاذاً، بل شحاذاً كبيراً كما يُقال عن كاتب أو عالم أو رجل دولة. كان يُرَحَّب به في كل مكان رغم أنّ أحداً لم يكن يعرف متى وأين ولِد، ويُعامَل بالاحترام الواجب على كل يهودي صالح تجاه رجل مسنّ، إذ جاء في الكتاب أنّ (إبراهيم) كان «***قد كبر وطعن في السن وبارك الرب عليه في كل أحواله***».

---

(1) «للمدينة والعالم (urbi et orbi)» هو تبريك البابا للمؤمنين من شرفة كاتدرائية القديس بولس.

كان شحاذو الحارة الآخرون يتمركزون على منعطفات الطرق وفي يدهم طاسة. وكانوا يجولون على الكُنُس مع طلوع الفجر، عند صلاة **شهريت**[1]، وأحد لا يبخل عليهم بصدقة لأنّ الله يتقبل الصلاة أكثر عندما يسبقها أو يرافقها أو يليها عمل حسن. باختصار، كان الشحاذون الآخرون مجرد شحاذين عاديين.

أما (أبو سارة) فلم يكن «يعمل» أبداً في الكُنُس أو الجنائز أو حفلات الأعراس والمناولة الأولى. لم يكن يمدّ يده أبداً. بل، وهذا ما كان يميزه عن الشحاذين من النوع الدارج، ما كان يقبل من المحسنين إلا الصدقات العينية : لإطعام الجياع وإكساء العراة. وفي حال ظنّ أحد المارة أنّه **مجدوب**[2] وأوقع قطعة نقدية أمام قدميه ليمتحنه أو ليضعه على المحك، كان يناديه فوراً ويطلب منه لمّها قائلاً :

- توقف عن نثر نقودك هكذا وإلا فلن يعد لديك ما تهزأ به مني . . .

لم يكن يتأثر من تلميحات الناس وسخريتهم اللاذعة إزاء رفضه الصدقات النقدية.

إلى هذا كان هناك أيضاً ذلك الاسم الذي ابتدعه، حيث لصق بـ(أبو) اسماً مؤنثاً متحدياً بذلك العُرْف الذي لا يجيز إلّا المذكر بعد (أبو)، وبالتحديد اسم الابن البكر.

- لماذا يسمّوك (أبو سارة)؟ سألته يوماً وقد أطال المكوث في دارنا لشرب كأس من التمر الهندي.

---

(1) صلاة الفجر.

(2) بالعربية في النص.

تظاهر بعدم سماع سؤالي. لم يكن يسمع سوى ما يحب سماعه، وكي يأخذ وقته ويزن كلامه، كان يبدأ أجوبته بإيعاز:

- علّي صوتك...

كنت أعرف أصل هذا الاسم كما كان الجميع يعرفه. لكنني كنت أود أن أعرف المزيد عن (سارة).

- لماذا يسمّوك (أبو سارة)؟ صرخت في أذنه.

- لماذا... لماذا... دائماً لماذا... (أبو سارة) يعني والد (سارة). هذه هي كل القصة. لا غرابة في ذلك.

- ومن كانت (سارة)؟

- (سارة)... (سارة)... لن يأتيك جوابي بجديد: (سارة) كانت ابنتي... ابنتي الوحيدة، أجمل هدية منحها الله لي ولزوجتي. ثم...

لم يستطع حبس دموعه. وتلك التي هربت من عيونه نصف المفتوحة كانت من تلك الدموع التي يمكن أن تقول الحب والسعادة كما الحزن واليأس.

- أكون ممنوناً لو شربت كأساً آخر من التمر الهندي...

كان الإبريق على متناول يده. لكنه لم يكن يجيز الصبّ لنفسه. ملأت له كأسه فرفعه بهدوء إلى شفتيه حامداً ذاك الذي يروي العطاش.

- ثم... استرجعها الله منّا... كانت مُلْكَه... كان عمرها أربع أو خمس سنوات... ربما ستة. وأمها التي ما عادت قادرة على الإنجاب ذبلت يوماً بعد يوم بسبب مرض غامض لم يكتشفه

الطبيب. قالت لي ذات مساء قبل أن تغفو أنها سمعت لتوها ابنتها تقول لها أنهما ستعودان وتلتقيان قريباً. سامَحَكَ الله. . . لماذا أسرّيت لك بكل هذا ؟ في تلك السنة، بعد شهرين من وفاة زوجتي، سمعت النداء.

- هل أستطيع أن أسألك سؤالاً آخر ؟ واحد لا غير ؟

- «لماذا» ثانية !

- لا، ليس تماماً. . .

- تفضّل. اسأل سؤالك.

- ما اسمك الحقيقي ؟

- اسمي الحقيقي نسيته. لكن كلما ناداني أحدهم بالاسم الذي اخترته لنفسي بعد رحيل ابنتنا، شعرت وكأن (سارة) نفسها تناديني لدى عودتي من الورشة «***يا بابا ! يا بابا***[1]***!*** . . .». نعم، من الورشة. فقبل أن أصبح شحاذاً كنت نجّاراً.

أخذ ***شفّة*** أخيرة من التمر الهندي ووضعتُ الكشكول على كتفه.

- إني أثرثر. . . أهذي. . . أُخَرِّف. . . وباقي عليَّ زيارة ستة أو سبعة بيوت كريمة كرم بيتك. وهنالك أصدقائي الذين ينتظرونني كما ينتظر الفراخ اللقمة في العش.

لم أكن في حاجة لسؤاله عن هؤلاء «الأصدقاء الذين ينتظرون اللقمة». منذ ستين سنة و(أبو سارة) يشحذ من أجلهم. وإذا كان ما يزال يعمل وسيطاً بين المُتْخَمِين بالخِراف المشوية ومُستنشِقِي رائحة

---

(1) بالعربية في النص.

الشي عن بُعْد، رغم سنه «المتقدم»، فذلك لأنّها رغبة (سارة)، حسب قوله.

وكان يضيف : «كل ما أفعله هو إعطاء ما يُعطى لي، لا أكثر ولا أقل».

صباحاً بعد صباح، كان (أبو سارة) يشهّل بصلاته ويحمل كشكول اليهودي التائه ويتوَقف حسب مخطط ثابت أمام البيوت التي «تُحْسِن العطاء».

«الله يرحمكم ويرحم أمواتكم يا جيران»، كان ينادي دافعاً أبوابهم.

كان (أبو سارة) يرى جيراناً في كل العالم بما فيه من بلاد بعيدة حيث من الممكن أن يكون أبناء أحفاد أبناء اخوته أحياءً يرزقون... جيران طيبون يعطون وجيران قساة القلوب لديهم دوماً مبرراتهم حتى لا يعطون. الحاصل... هذا لا يعنينا... فلسنا نحن من سيحاسبهم وإنما خالقهم.

-«الله يرحمكم ويرحم أمواتكم يا جيران»، كان يكرر ليتأكد من أنهم لن يَدَعوه ينتظر طويلاً.

كانوا يعجّلون بإعطائه ما يحق له : خبز، الكثير من الخبز، اليابس أحياناً، مع بقايا طعام بائت. وبما أنّ نظره ما عاد يسعفه، كانت «الجارات» تسمّي كل طبق لدى إفراغه في المطبقيات الموضوعة في أسفل كشكوله. كما كانت تحشر أحياناً ثياباً «تنفع إذا أُصلِحت».

في نهاية جولته، كان (أبو سارة) يصل مسكنه حانياً ظهره أكثر فأكثر تحت ثقل كشكوله، فيُحصي ويُصنّف ما جمعه من تبرعات الصباح ويُعجّل في حمل الأغراض لكلٍّ من «عائلاته التي تمر حالياً

في ضائقة». هكذا كان يقوم بجولته الثانية. جولة الحصاد. تلك التي تعوّضه أضعاف الأضعاف عن تعب الأولى.

كان ينتقل في غضون ساعات قلائل من دور الشحاذ إلى دور المُحْسِن شاكراً المُوَزِّع الكبير على اعتباره أهلاً لهاتين «الوظيفتين».

كانت زياراته المتكتّمة لأصدقائه «المتعسرة أمورهم» أشبه بزيارات ساعي بريد ما عنده لحظة يضيّعها. كان يحييهم بصوت أكثر فأكثر خفوتاً ويضع «أطباق اليوم» على طاولة أو حافة نافذة وينتظر حتى يعيدون له مطبقياته ثم ينسحب بأقصى ما تستطيعه قدماه من سرعة دون أن يترك لهم وقتاً «لمباركة أعماله».

في بعض الأيام، لدى عودته من جولاته، كانت إحدى الجارات «الحقيقيات» التي اعتادت أن تنفض حصيرته وتجلي صحونه وترتّب مسكنه قائلة «إنها طريقتي في الصلاة وربما في نَيلِ مكان صغير جداً في الجنة»، كانت تنبهه إلى أنّه عاد ونَسي أن يحتفظ لنفسه بشيء يأكله.

- يا (أبو سارة) هذا لا يجوز. شعارك «لا شيء لي» ما عاد يناسب عمرك...

- علّي صوتكِ...

- لقد سمعتني جيداً.

- نعم ! سمعتك... كلّما قللت من الأكل، قرّبت من (سارة) وأمها. ثم حاولي أنتِ يا (أم سليم)[1] أن تمضغي شيئاً من دون أسنان...

---

(1) كلمة أم بالعربية في النص

- يمكنني أن أحضّر لكَ شوربة عدس. . .

- ما لي نَفْس.

- أنت مريض ولا تكفّ عن السعال وتستطيع بالكاد أن تقف على قدميك وتُعَتِّل كشكولك من أول الحارة إلى آخرها ولا تريد أن تذهب إلى الطبيب. . .

- ما عاد (أبو سارة) بحاجة إلى طبيب. يقولون أنّ عمري مائة وخمس سنوات. . . حتماً يبالغون. لكن آن لي أن أرحل.

- وماذا يحل «بالآخرين» من بعدك ؟

- الله لا ينساهم. ثم أليس هو من أوقعهم في هذه الورطة ؟ تبارك اسمه !

*

ذات يوم، انهار (أبو سارة) بعد جولته الأولى. جولة الشحاذ. ولم ينسَ الله «الآخرين». لكن، كان للخبز الطازج المرسل إليهم من دائرة الشؤون الخيرية «طعم الصَدَقَة». أما خبز (أبو سارة) اليابس فكان له، حسب تعبيرهم، «رائحة الطيبة».

المسيح... سيأتي غداً

بعد أن تجاوز الستين، وكان مستحسناً في هذا العمر أن يتهيأ الواحد لحزم أمتعته، لم يعد جدي يخصص لمشاغل الحياكة التي يملكها إلا جزءاً صغيراً من وقته مكرِّساً الباقي للصلاة وقراءة الكتب الدينية.

في الفجر، حال عودته من الكنيس، كنيسه، كونه المسؤول عن إدارته ورعايته، كان يضع على طربيزة موزاييك مغطاة بشرشف طرّزته جدتي كومة كتب اختارها بالأمس من على رفوف مكتبته. كان هذا الخَيار محكوماً بتقويم زمني. وبما أن جدي لم يعهد تقويماً غير تقويم الأعياد اليهودية، فإنّ معظم قراءاته كانت تتناول معنى هذه الأعياد وطرق الاحتفال بها. كان هناك كتب الأسبوع الذي يسبق ***روش هاشانا***[1] وأخرى للذي يلي يوم ***كيبور***[2]، كتب للفصح وأخرى لعيد الحصاد، الخ. وكان هناك الكتب «الثابتة»، تلك التي يلوكها جدي كل يوم بنفس الشهية ونفس الورع.

كان يجلس في الصيف على أريكته خلف شجيرات الورد ويتناول أول فنجان قهوة، ليستغرق بادئ ذي بدء في قراءة المزامير التي حفظها عن ظهر قلب.

---

(1) روش هاشانا هو رأس السنة.

(2) كيبور هو عيد الغفران.

كنتُ أكبر أحفاده وبصفتي هذه مكلّفاً بإعادة كل مجلّد في المساء إلى المكان المخصص له.

كان يقول لي بين ذهابي وإيابي من الطربيزة إلى المكتبة :

- عليك قراءة هذه الكتب مرة واثنتين. ففيها فقط ستجد الحقيقة. والحقيقة كالسعادة لا تأتي بسهولة. يجب البحث عنها دون كلل أو ملل.

- ولكن، ماذا تفيدني قراءة وإعادة قراءة صفحات هذه التأويلات الباطنية مادمت غير قادر على فك رموزها ؟ كنت أجيبه.

- كم مرة يجب أن أكرر لك أنّه قبل أن تتعلم قراءة هذه الكتب المقدسة بمخك المُتَشَرِّب بالرياضيات والتساؤلات الضبابية، عليك أن تحزر مغزاها بقلبك وإيمانك. معظم المؤمنين الذين تحاذيهم في الكنيس لا يفهمون حرفاً من الصلاة التي يوجهوها لله. وأنا من أهل الكتب والكتاب أحسدهم في بعض الأيام على جهلهم. الإيمان يا بني، الإيمان قبل كل شيء. آمن في فضائل هذه النصوص المطهّرة، وإن كنت أوافقك بأنّها مملّة بعض الشيء، وأترك لذلك الذي أوحى بها لكُتّابها مهمة توضيحها لك. ويوم تفهم أنّ جملة واحدة من *الزُهْر* (كتاب الروائع) تحتوي على أكثر مما في كل الكُتَيّبات التي يُلَقّمك إياها أساتذتك، تكون قد خطوت خطوة كبيرة تجاه المعرفة، وستشعر عندها بوحدة الحال لا مع الناس، اخوتك، وحسب، بل مع الطيور والغزلان والحملان وكل الحيوانات التي أركبها نوح على سفينته قبل الطوفان. وستحبّهم جميعاً كما يتوجب عليك أن تحب قريبك. عدا الأفاعي، طبعاً. . . والخنازير.

كانت تلك استراحته أو موعظته اليومية التي تصادف عودتي من

المدرسة. ورغم أنّه كان يتعبني بنصائحه وتعليماته وتوصياته وتحذيراته واستشهاداته، كنت أصغي إليه دوماً باحترام ودون ملل.

كانت مواعظه تنتهي دوماً بتنهيدة طويلة وبعبارة «الحاصل له...» التي كانت تُعيدني إلى كتب من كنت أعتبرهم آنذاك من «كبار الكلاسيكيين» : (اناتول فرانس) و(بول بورجيه) و(مارسيل بريفو) و(بيير بونوا) صاحب «سيدة قصر لبنان» والأخوَين (تارو) اللذين كانا قد نشرا للتو «طريق دمشق».

*

السبت، بعد صلاة نهاية طعام الغداء، كان جدي يلبس سترته فوق قنبازه ويطبطب على خدود أصغر حفيداته ويسحبني إلى الكنيس الذي لم تمضِ سوى فترة قصيرة على مغادرته له. وككل سبت، كنّا نجد الجمع نفسه. كان هناك الإسكافي والسمّان الذي كان راقياً[1] وعرّافاً ومشعوذاً بآن والخِرقي[2] وولديه والنحّاس والحدّاد وأجير الخبّاز والنقّاش وعديله والنجّار والخطّاط واثنا عشر ممن لا مأوى ولا دَخْل ولا شيء عندهم، وأحد الوجهاء البدينين الذي كان يضحّي أحياناً بقيلولته ليختلط بهذه «الناس الأوادم»، و(برهومه) أبله حارتنا المسترخي تحت خزانة أسفار التوراة، وأخيراً، متربّعاً على

---

(1) الراقي هو من يحترف الرقية أي القراءة والنفث على المريض والمصروع (قاموس الصناعات الشامية).

(2) الخِرقي هو من يحترف إلتقاط الخرق من المزابل وأفنية البيوت والحارات، فيأخذها ويغسلها. فما صلح ليخاط بعضه ببعض، فإنه يخاط ويعمل أكياساً تباع للعطارين لصر الأرز والسكر والملح ونحوها. وما لم يصلح للخياطة يباع للصرماتية، فيجعلونه حشواً للصرامي (قاموس الصناعات الشامية).

أطرى طرف من الكنبة وساندا ظهره إلى نصف دزينة من المخدات، الحاخام (حسون) الذي كان يدير النقاشات بصوته التبشيري الأجش.

كانت هذه النقاشات التي تدوم أربع أو خمس أو ست ساعات حسب الفصول وطول النهارات، تدور غالباً حول بعض العبارات المُلتَقَطة كيفما اتفق من مجلّدات مكتبة *المدراش* الضخمة المعثّة التي اعتاد متطوع توّاق لأعمال حسنة أن يفركها وينظفها قبل توزيعها على المشاركين، بمن فيهم الذين لا يعرفون القراءة لكن غير اليائسين من معجزة تردّ لهم حصتهم من المعرفة.

«قال الحاخام عكيبة. . .»، هكذا كان الحاخام (حسون) يصفّر معلناً بداية المباراة. فيبذل كل واحد قصارى جهده للاستيلاء على الكرة، عفواً، على الكلام، وتقديم أول تفسير، *تفسيره*، لما قاله أو لم يقله الحاخام (عكيبة). كل كلمة، كل لفظة، كل حرف من جملة تبدو (انتبهوا : تبدو) بسيطة وجليّة وواضحة، كانت تمرّ على ألسنة هؤلاء المفسِّرين بالفطرة، فيزنوها ويرجّحوها ويلوكوها حتى ينزعون عنها سراً لا تملكه ويُقَوِّلون ذلك المفسِّر الشهير ما لم يقله أبداً. لكن بما أنه كان لا بد من الانتقال إلى جملة ثانية للحاخام (عكيبة) أو إلى جملة أخرى لمفسِّر آخر، كان الحاخام (حسون) ينحّ وينفّ ثلاث مرات ويطوي منديله ويجول بنظره على نعاجه التي لم يضلّ أي منها يوماً ثم يعطي التفسير *الصحيح*. الوحيد.

بعد الحاخام (عكيبة) يأتي الحاخام (طرفون)، يليه الحاخام (إلعازر) الذي يسبق الحاخام (يهوشع) الذي يسبق الحاخام (ماير). . . تشكيلة جميلة كلها نجوم. وكلّ جملة من جملهم كانت تُثير النقاشات الصاخبة والمُطرشة والحماسية والعنيفة والمتناقدة. ألَمْ نكن هناك من أجل ذلك ؟

هكذا كنّا نبحث إلى ما لا نهاية وعلى وَقْعِ *يش عمريم*، *فيش عمريم*[1] في الطاهر والنجس، في أكلات اللحم الممنوع تناولها مع أكلات اللبن (لأنه كُتِب : *لا تطبخ جدياً بلبن أمه*)، وفي وزن الأحذية المسموح لليهودي احتذائها في عيد الغفران، فيما سيلقاه في جهنم الخاطئ الذي يأخذ نَفَس سيكارة بعد ظهور أول نجمة مساء الجمعة، وفي عقاب المرأة الزانية، في الطقوس السبعة التي تسبق عقد الزواج، وفي الثمن الذي سيدفعه من يتبادل أدنى كلمة مع منبوذ من الكنيس، في الإثباتات المُتَوَجَّب على أهل البنات إبرازها غداة ليلة العرس، وفي حكمة (سليمان) أو آية (اشعيا)، في لون بشرة (سالومة)، أكانت حقاً سمراء؟ وهل حرست حقاً حقول أولاد أمها كما كانت تزعم؟... الخ.

في نهاية اليوم، قبيل صلاة المساء، كان لا مفرّ من عودة السؤال الملحّ الذي ما فتئ اليهود يطرحونه على أنفسهم منذ آلاف السنين. وكان دوماً أفقرهم من يطرحه على المَوْلى بإلحاح شديد. ما كانوا ليقبلون، بل ما كانوا ليفهمون أن يفضّ الجلسة قبل أن يجيبهم أو يتظاهر بإجابتهم على السؤال.

- طيب يا حاخام. المسيح... سيأتي غداً؟ كانوا يسألوه.

- صبراً... صبراً... كان الحاخام (حسون) يرد مغمضاً عينيه وكأن ليقرأ الجواب اللازم في أعماقه. صبراً... صبراً... عما قريب.

---

(1) يش عمريم، فيش عمريم تعني «منهم من يقول كذا ومنهم من يقول كذا» (المؤلف).

مهما حضّر نفسه، كان هذا السؤال يربكه.

- سيأتي سيأتي، كان يكرر ساحقاً بقّتين لاهيتين على غلاف كتابه.

- ألا تستطيع أن تحدّد أكثر؟ تضرّع الحدّار[1] الذي سُلِبَت بضاعته بالأمس في الريف وما كان يدري من أين ستأتيه النجدة.

كان الحاخام يجيب:

- لقد وعد إله إبراهيم شعبه بذلك. سيرسله لنا... ويومها...

- آه! يومها، كان يردد بصوت واحد من ليس لهم دَخْل ولا مأوى ولا عائلة، والجهلة والعارفون والحالمون والمجنون. يومها يصبح الله أحداً واسمه أحداً.

المسيح سيأتي إذاً في العام المقبل... أو بعده بقليل... على أي حال، قبل الآخرة...

ما كان هؤلاء الأبرياء الذين لا حيلة لهم يعرفون حينها (ومن أين لهم أن يعرفوا؟) أنّ المسيح، كما يقول كافكا، «لن يأتي إلّا عندما لا يعد ضرورياً؛ لن يأتي إلّا بعد يوم من قدومه؛ لن يأتي في اليوم الأخير وإنّما في صبيحته».

*

من المؤكد أنه بعد خمسة وعشرين عاماً على سماعي للمرة الألف وعد الحاخام (حسون) هذا، في ذلك الصباح من شهر نيسان 1943، عندما رأيت ميليشاوياً على (كورنيش الإنكليز) في مدينة

---

(1) الحدّار هو من يأخذ بضائع خفيفة ويخرج بها إلى القرى ليبيعها أو يقايضها بقمح وكشك وعدس وبرغل وغيرها (قاموس الصناعات الشامية).

(نيس) يهرس ببسطاره ويهشّم رأس امرأة يهودية أمام مارّة مذعورين وطفل يصرخ : «ماما ! ماما !»، لم يكن المسيح قد أتى بعد. لا من أجل تلك المعذبة التي ما عادت بحاجة إليه ولا من أجل الملايين من اخوتها في الدين الذين كانوا سيُصلبون.

على غرار ذلك الـ. . .

المعاينة

كان حلّاقي حلّاق العائلة. كان يحلق لأبي وأخي وأعمامي وأبنائهم ويشذِّب لحية جدي مرة كل شهرين أو ثلاثة.

ككل مُزيّن أهل لهذه المهنة، كان يربّي في دكانه جيشاً من العَلَق ويضع بعضها، بين حلاقتين، على ظهر مريض من «مرضاه» الذين لا يرتاحون إلا «ليده الأمينة». وكل الذين امتصّ عَلَقَه دمهم كانوا يقسمون بأمهاتهم (*وحياة أغلى ما عندي بالدنيا!*) أنهم سمعوه يتحدث، نعم يتحدث، إلى العلقيات وهو يُخرجها من بوقالها. أما ماذا كان يقول لها. . . فعلى زعم جاره القباقيبي الذي أعتاد أن يحشر نفسه في كل ما لا يعنيه، كان (صادق مالح)، وهو اسم الحلاق، يطلب منها ببساطة أن تباشر عملها. لكن لم يكن للقباقيبي أية خبرة في هذا المجال. ومن جهتهم، لم يكن المرضى معنيين أبداً بما يمكن للحلاق أن يرويه لعلقه. كان لديه لغته الخاصة ومن الفضول لا بل من العيب سؤاله فكّ رموزها.

في بعض الليالي، كان يُستدعى لوضع محجم[1]. كانت حقيبته معلقة دوماً فوق فراشه، على متناول يده. لم يكن يلزمه أكثر من

---

(1) المحجم آلة كالقرن، مجوفة، رفيعة الرأس، مثقوبة الفم، تُستخدم لمص الدم بعد شرط الجلد بالموسى (قاموس الصناعات الشامية).

ثلاث دقائق للبس قنبازه واحتذاء بابوجه ووضع طربوشه على نافوخه والتأكد مما كان يسمّيه عدّته. وكي لا يوقظ زوجته، لم يكن يشعل سراجه إلّا على (مفرق المواكب) قبل أن يسلك الطرق المودية إلى باب المريض.

كان المريض يتنهد بعد آخر كاسة هواء :

- آه ! بارك الله فيك. صرت أحسن بكثير.

كان المرضى يعتذرون من (صادق) على إزعاجه ويَعِدُونه بالصلاة أسبوعاً كاملاً لراحة موتاه ويتمنون له حياة مديدة كـ(إبراهيم) ويقدّمون له قهوة مع قطعة لوزينا أحياناً ولا يدفعون له إلّا . . . بعد فترة. . . بعد فترة طويلة.

- لا داعٍ للعجلة، إذا ما في مجال، ما في مجال. . . كان يقول للذين يعتذرون عن عدم قدرتهم على دفع تكلفة الزيارة، ويضيف وهو يضبّ محاجمه : لا أحد يدين لي بشيء.

لكن إذا كانت بقية الحارات تحسدنا على حلاقنا فذلك لاختصاصه الآخر. اختصاص غريب ساهم كثيراً في شهرته. باختصار شديد، كان حلاقنا يقوم بمعاينات كلها مجانية ومخصصة لشاري الدواجن من دجاج وأفراخ دجاج وديوك وأفراخ ديوك كان حدّارو الحارة يجلبونها أسبوعياً من جولاتهم المحفوفة بالمخاطر في ضِيَعٍ يساوي فيها رأس يهودي أقل بكثير من رأس ديك مخصي.

لم تكن هذه الطيور التي تُباع حيّة في المناسبات وأيام السبت تجد من يشتريها، إذا لم تكن نتيجة تشخيص الحلاق لها إيجابية. لذلك كان بائعو الدواجن يضعون أقفاصهم على جانبي دكانه. فيعهدون إلى الشّاري المتردد بالدجاجة أو الديك الذي أعجبه ليتمكّن من استشارة المتنبئ.

كانت المعاينة تتم علناً وحسب سيناريو ثابت.

- صباح الخير يا جماعة.

- صباح النور .

- ها هي الدجاجة التي اخترتها من عند حَمَّامِة. . .

يضع الحلاق عندئذ طاسته على رف ويترك فرشاته ويقدّر وزن الدجاجة حاملاً إياها من رجليها.

- الوزن، لا بأس به. . . لكن الوزن وحده لا يكفي. يجب تلّمسها. . . والكشف عليها. . .

وكان يكشف عليها. كيف؟ في الحقيقة، كان يحشر إصبعه الوسطى في. . . في طيز الدجاجة المسكينة التي كانت تطلق بقبقات ترددها الدواجن الأخرى المحبوسة وقد شعرت حتماً بما ينتظرها. . .

- الجنس مليح. . . الشحم مليح. . . ربما دسمة قليلاً، لكن الألْيَة واعدة. . . لو كنت مكانك لاشتريتها. . .

تنتهي المعاينة ودون أن يتكلّف ويغطّ إصبعه في الماء، كان الحلاق يعود إلى الطاسة والفرشاة لإكمال اللحية التي كانت «بيده» لدى وصول طالب المعاينة.

للأسف، ما كان الزبائن القلائل الباقون على وفائهم له يحبذون كثيراً مشهد ذهاب وإياب إصبعه بين لِحاهم وأطياز الدجاج التي «يكشف عليها». وكانوا ينصحونه :

- لا بد أن تختار، إما الشعر واللحى أو أطياز الدجاج.

- عليكم أنتم أن تختاروا. إنّ الكشف على الدجاج هِبَة من عند الله. وسأُفيد منها الأغنياء والفقراء حتى أموت.

- لكن الفقراء لا يشترون الدجاج أبداً...

- غلطانين ! أنا أعرف منهم من يُصمِّد قرشاً فوق قرش ليشتري فروجة الفصح أو ***روش هاشانا***. ولأجلهم بالذات سأستمر في الـ... في الممارسة مهما حصل. فمن دوني يمكن أن يبيعوهم دواجن مريضة... أنا لست بعرّاف أو بحاخام. الله منحني هذه الهبة. وأنا لم أنتفع منها أبداً.

فقد الحلاق آخر زبائنه واحداً تلو الآخر. وعندما كنّا نمرّ في السوق حيث دكانه، كنّا نراه جالساً على كرسيه وهو يردد المزمور نفسه بصوت عالٍ : «*يا رب ارحمني فإني في ضيق*...»

رجل الأعمال الشاقة

كان (حمرا) رجل أعمال شاقة. ولو تكلمنا كخدم (غولدوني)[1] لقلنا أنه كان مُلكَنا. كنّا، إذا جاز التعبير، نملك حق التصرف به.

كان يمثُل صباحاً عند الفطور فيتناوله غالباً معنا، ولا يغادرنا إلّا في وقت متأخر من الليل، مُفرَغاً مُنهَكاً، ليلقى زوجته في إحدى الغرف التي ما زالت قابلة للسكنى في بيت واقع تحت رحمة الهدّامين.

- حمرا ! طلّع الفحم من القبو، كانت تصرخ إحدى عمّاتي ما أن ينتهي من تناول قهوته.

- حاضر. . .

- وأدخِل الحطب الذي أنزله الجمّال للتو أمام الباب.

- سأهتم بالحطب بعدما أطلّع الفحم من القبو. لكنيّ سأنادي الكسّار أولاً.

- قل له أن يقطّعه أصغر من المرة الماضية.

- سأفعل. . . وبعدما يقطّعه أضعه في الفناء الخلفي تحت

(1) كارلو غولدوني (1707- 1793) كاتب مسرحي إيطالي. له مسرحية شهيرة بعنوان «خادم السيدين».

الشمس لينشف. فالحطب الناشف أصلح لإشعال النار.

- يا حمرا ! كان هذا صوت عمة أخرى.

- حاضر، حاضر...

- لا تنسى الزريعة.

- لا تشغلي بالكِ. حمرا لا ينسى الزريعة أبداً. فهي صديقته. وهي تنحني ثلاث مرات أمامي كلما سقيتها. مرة لتطلب المزيد ومرة لتشكر ذلك الذي خلق الماء ومرة لتتمنى لي ألّا أعطش أبداً.

- ماذا لو أحضرت الكراسي من عند المُقشش بدل الثرثرة؟

- أولاً هذه ليست بثرثرة. فالزريعة تكلّمني وأنا أكلّمها. أنتِ لا تستطيعين فهم لغتها... الزريعة تعيش مثلي ومثلك، تتنفس نفسَ الهواء الذي نتنفسه. وتتعذّب وتبكي وتضحك... لكن أنتِ تحسبين نفسكِ أعلى من الزريعة أي أعلى من مخلوقات الله...

- والكراسي؟

- لن تجهز قبل الغد. هذا ما كرره لي المُقشش صباح اليوم.

- يا حمراااا... كان هذا صوت أكبر عمّاتي التي تولول دوماً والتي يصل صوتها إلى آخر شارعنا. يا حمراااا... عليك أن تشطف أرض الدار قبل أن يأتي حاخامات كنيسنا الخمسة لزيارتنا غداً بمناسبة الذكرى السابعة لوفاة المرحومة أمي...

- لقد عرفت أمكِ المسكينة حق المعرفة. كانت امرأة تقيّة. لم تكن تصرخ أبداً... أما بالنسبة لشطف أرض الدّار، فكل شيء بوقته. سأشطفها بعدما أنظّف البركة. وبما أنّي سأغوص فيها لغسل قاعها، فإني أنصحكِ بالتزام غرفتك.

- يا حمرا ! اقترب يوم السجاجيد، عليك إنذار الحيّات.

- لم يئن الأوان بعد. إن أنذرتها الآن فسيكون لديها كل الوقت لتعود. وأنتِ تعلمين جيداً أنّها لا تحب أن نزعجها دون سبب.

كان هناك نوع من التعايش بيننا وبين الحيّات التي «احتلّت» خزائننا القديمة. كانت حيّات «شريرة» من جنس ذات الأجراس. لم نكن لنجرؤ على زيارتها دون إعلامها مسبقاً. فقد كان في ذلك مجازفة كبيرة. قبل أن ندير مفتاح الخزانة، كنّا نحرص على النقر ثلاث مرات، كما هي العادة حتى اليوم في بعض المسارح قبل رفع الستارة، أو نحرّك خشخيشة فتهرب مطنطنة.

«الحيّات التي تطنطن هي من ألدّ أعداء الإنسان»، كان يقول الخبّاز رغم أنه ثعبانيّ[1] ماهر.

في بداية الربيع إذاً، كانت المولولَة تطلب من (حمرا) أن يُخرج السجاجيد الغوالي من خزائنها لحمامها السنوي. وكنّا جميعاً نشارك فيه. فنمدّها ونصوبنها ونغسلها ونفرشيها وننفضها ونفرشيها ثانية. كان هؤلاء العجم أبناء المائة عام يستعيدون شبابهم بهذا الحمام. وبعد يومين أو ثلاثة، كان رجل الأعمال الشاقة يلّفهم وينقلهم تباعاً على كتفيه إلى الخزائن ويُحكم القَفل عليهم. ها قد أصبحوا لمدة سنة جديدة مرتبين وبعيدين عن الأطماع وتقلّبات الطقس. وصار بإمكان الحيّات أن تعود وتحتل المكان، مكانها.

كان (حمرا) يلصق أذنه بثقب قفل الباب ويهمس :

---

(1) هو من يروّض الثعابين (قاموس الصناعات الشامية).

- ***يا حيّة ! يا حيّة***[1]*!* خلِّ سمّك لنفسك إذا كنتِ تريدين أن نتركك تعيشين بسلام ؛ لا تهاجمينا إذا كنتِ تريدين أن ننسى كل الشر الذي سببتِه لنا منذ بداية الخليقة. واحترمي هذه السجاجيد العتيقة وإلّا فالويل لذَنَبِكِ !

كأطواق اللؤلؤ وعقود الألماس، كانت السجاجيد القديمة تمثِّل لبرجوازيتنا جزءاً لا يُستهان به من ثروتها. وكانت تحرص عليه.

*

- يا حمرا، كم عمرك ؟ سألته يوماً وقد عاد ظهره ليؤلمه.

- الله أعلم. هذا إذا...!

- أُعطيك بين الخمسين و. . .

- أكثر بكثير ! أكثر بكثير !

- لا تقول لي أنك في حيطان المائة. . .

- ولِمَ لا ؟ لو كنتُ أعرف القراءة لأريتك في التوراة أنّ شيوخ قبائل إسرائيل كانوا يتزوجون وينجبون وقد تجاوزوا المائتي عاماً. على كل حال، أيّاً كان عمري فأسناني ما تزال كلها في فمي. تقريباً كلها. . . ولا يمكن اقتلاعها. . . أتريد إثباتاً ؟

بحث في جيب ***شرواله***[2] وأخرج جوزة كبيرة وضعها في قعر فمه، بين فكّيه و. . . طق !

- انظر، قال وهو يبصقها في يده. تستطيع التأكُّد : صارت فُتاتاً.

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

كانت الجوزة بقشرتها ولبّها فعلاً مسحوقة.

*

خمسة أيام في الأسبوع، من الأحد إلى الخميس، كان (حمرا) يلبّينا كلما ناديناه.

- حاضر، حاضر، حاضر...

خمسة أيام من سبعة، كان يرفع ويحمّل على ظهره أكياس رز وطحين وملح خشن و*فول*[1]، وينقل عشرات الجرار المليئة بمخلل الخيار واللفت والفليفلة دون تذمّر أو تبرّم.

- أين حمرا؟ ماذا يفعل حمرا؟ يا حمراااا...

- حاضر، حاضر...

لكن يوم الجمعة، يوم السوق، كان يعود رجلاً حرّاً ويمارس مهنته الثانية. كان عليه خلال فترة قبل الظهر بيع كل حِزَم الكرفس التي يقتلعها من «أراضيه».

«قرِّب، قرِّب... كرفس طري طراوة قلوبكم. مقطوف من ساعتين... ما في أخوه في السوق...»، كان ينادي المارّة ويحاول استبقائهم ممسكاً بطرف قنبازهم.

لم يكن كلام (حمرا) عن «أراضيه» كله كذباً. الحقيقة أن «أراضيه» كانت ملك الجميع ولا أحد بآن. كانت تمتد على طول حواف نهر بردى وكان ينثر فيها بذوره على غير هدى فصلاً بعد فصل. وكل خميس، بعد غروب الشمس، كان يتمشّى على طول

---

(1) بالعربية في النص.

تلك الحواف قاطفاً حصته الأسبوعية من الكرفس وكأن شيئاً لم يكن. لا مين شاف ولا مين دري، وإلى اللقاء في الأسبوع المقبل. مضى أكثر من ثلاثين عاماً وهو يستثمر هذه اللُقْية دون أن يتساءل أحد كيف اهتدى إليها.

بعد بيع أو إهداء حزمته الأخيرة، كان (حمرا) يعدّ قروشه ويرجع إلى بيته حيث تنتظره زوجته أمام طشت ماء ساخن وكوم مناشف معطّرة بالصعتر. ولدى ظهور أول نجمة، بعد أن تكون قد غسّلته وصوبنته وطهّرته، كانت تُشعل الشموع وتُقدّم له عشاء يوم السبت.

لكن بمجرد حلول يوم الأحد كان (حمرا) يعود رجل أعمال شاقة.

- يا حمراا...

- حاضر، حاضر... لا داعٍ للصراخ هكذا. حمرا ما مات...

- أَحْضَرتَ الخبز؟

- *نعم*[1].

- والفحم؟

- نعم، نعم...

عند الظهر كان يأخذ طعامه من المطبخ ويتناوله متربّعاً على الأرض بين الليمونة والكبّادة.

---

(1) بالعربية في النص.

وفي بعض أمسيات الصيف، كان يتعشّى معنا في أرض الدار وينام أحياناً تحت النجوم قرب الأريكة التي أعتاد أبي النوم عليها.

كان يهمس في أذنه :

- انتظر، ما أن تنام أخواتك حتى أُحضِّر لك أركيلة ملوكية. وسأُحضِّر بطريقي واحدة لي أيضاً.

بعد ذلك بقليل، لما يدندن العشاق والسهارى ***يا ليلي***[1] على شرفات دمشق، يدخن أبي آخر أركيلة منصتاً إلى (حمرا) وهو يعيد ويروي مغامراته.

- سأحكي لك كيف تمكنّت من الهرب من شونة فلاح حقود كان قد باغتني وأنا أزرع الكرفس بمحاذاة حقله.

- لا ! هذه أعرفها. احكي لي تلك التي نجوْتَ فيها من الموت حين جعلت الفلاح الذي صوَّب عليك يعتقد أنك تتحادث مع النجوم.

- كان عليّ أن أخترع شيئاً لكسب الوقت. أي شيء... فأشرت له إلى السماء المليئة بالنجوم ورَجَوْتَه أن يمهلني بعض الوقت قبل قتلي لأُنهي محادثتي معها. في تلك الليلة كان نجمي طالعاً بين تلك النجوم... ذلك النجم الذي كان دوماً يهديني ويحميني. أنْزَلَ الفلّاح بندقيته... ونجوت !

احفظ هذا الدرس جيداً ***يا أخي***. إنّه أجمل ما تعلّمت أثناء جولاتي الليلية على أراضيي : لا أحد يطلق النار على رجل يتكلم مع النجوم.

---

(1) بالعربية في النص.

كيف تصبح أعجمياً؟

(سلمونه) هو أحد المحاربين القدامى الخمسة أو الستة في الحارة الذين نجوا من الحرب. الحرب الكبرى، حرب 1914ـ 1918. ورغم مُضي عشر سنوات على عودته من. . . من هناك، فهو لم يزل غير عارفاً أين ولماذا ولمن حارب.

كان يروي : «عندما انقضّ المجُنِدِون على بيتي ببنادقهم وسيوفهم وحرابهم وترساناتهم، كان الجمّال قد أتاني لتوه بحطب الشتاء، وما كان باقياً معي سوى خمسة قروش أفي فيها جزءاً صغيراً من دَيْني للخبّاز والسمّان. لم أكن إذاً أستطيع أن أشتري لحظة السهو من جنود السلطان الذين لا يقلّون فساداً وارتشاءً عن قضاته، وهي اللحظة التي كانت ستسمح لي بالاختباء عند ابن عمّي الحاصل على حماية الشاه منذ فترة قصيرة. فأخذتُ نصيبي من الصفعات وضربات الكرباج النظامية وبعض دغدغات رأس الحربة والشتائم بالتركية التي لا أفهمها، وبالأخير، رحلة مجانية إلى جهنم الحمراء».

ترك (سلمونه) ستة أصابع في ساحات المعارك، ثلاثة من كل يد.

وكان يقول ممسّداً شاربيه بالأصابع الأربعة المتبقية له : «لو كنت أملك ثمن حماية، لما كنت هذا اللاشيء الذي تراه اليوم أمامك والذي يعيش على نفقة الطائفة».

كان سيناريو «لحظة السهو» معروفاً، بل معروفاً جداً لدى جميع الراغبين بعدم خدمة السلطان. وثمن هذه اللحظة التي تترك للمُتَخَوِّفِين الوقت الكافي للاختفاء في متاهات الحارة، يساوي بالتمام ما يقدّمه «عديم الوطنْية» من سيولة، كل أنواع السيولة. كان الأمر يبدأ باستجواب، غليظ أحياناً، وبتفتيش وتمشيط للبيت، وينتهي، حسب أهمية المبلغ والحلي المقدَمة، بتجنيد سريعٍ حسب الأصول أو بـ. . . «أين اختفى هذا اليهودي. . . هذا الكلبُ الهارب من الخدمة؟»

اليهودي الكلب ولّى الأدبار. سيُقبَض عليه في المرة القادمة. وستُمثّل أمامه نفس تمثيلية لحظة السهو هذه. وبنفس التَعريفة. . .

لكن الوسيلة المثلى للإفلات هي جواز السفر المزوّر. ليس أي جواز أو أية جنسيّة. أفضل الجوازات وبالتالي أغلاها هو الذي يثبت استناداً إلى ختم وصورة وعلامات فارقة أنّ حامله من أتباع صاحب الجلالة شاه العجم أو السمو الإمبراطوري قيصر الروسية.

كيف يصبح الواحد روسياً أو أعجمياً؟ بدفع الثمن بكل بساطة (لأسباب لا تمتّ للمنطق بصلة، كان ثمن جواز السفر الروسي المزوّر أعلى من ثمن جواز السفر الأعجمي الأصلي). وكل شيء يهون في سبيل الحصول على هكذا ضمان يجعل الواحد، مؤقتاً، بمنأى عن زيارات هؤلاء الضباط الشرهين أبناء وأحفاد الشراميط.

كان في الحارة إذاً كل أنواع «الحمايات»، الوهمية أحياناً، لكن «الواقية دوماً من كل الأخطار». وكلما زاد الدفع، كبُرت فرصة. . . النجاة.

وبعد مضي فترة طويلة على وقف النزاع، ظل الذين استفادوا

بشكل أو بآخر من تلك «الحمايات» والذين ما عادوا اليوم يخشَون شيئاً، مترددين في ترك جوازاتهم العزيزة المزوّرة. وكان أكثرهم تطيّراً يستبقيها معه في علبة صغيرة كما التعويذة. تحسّباً لحرب جديدة. . .

مازلت أذكر دهشة جدي حين كنّا نحدّثه عن الجواز الأصلي بكل ما تعنيه الكلمة الذي عاد ووجده يوماً بالصدفة في أحد كتب صلواته وكان قد أهداه إياه قبل عشر سنوات صديقه القديم (انطون باخوس)، القنصل العام لروسية الفاضلة بمشيئة القيصر، وتاجر الأقمشة بالجملة بمشيئة الله.

- إذاً، أنت حقّاً روسي الجنسية. وبلشفي أيضاً. لا ينقصك سوى السكين بين الأسنان، كنت أقول له.

- عَمَّ تتحدث؟ ما هذا الـ. . . بلش. . . بلشي؟ ولِمَ تريدني واضعاً سكيناً بين الأسنان؟

- لأن كل الروس أصبحوا (بلـ ش فيين)، وكل (بلـ ش في) يضع سكيناً بين الأسنان. هذا ما تقوله الصحف.

- ولِمَ السكين؟

- لقتل الملّاكين ونزعهم ملكية ما يملكونه. . .

- بعد الشر عنّا، بعد الشر عنّا! هذا الجواز هدية. راح عن بالي نهائياً. والديبلوماسي الذي أهداني إياه لا يعرف أكثر مني عن البلد المُفتَرَض أنّه يُمثّله. وسواء أنا أو هو، فكلانا غير قادر على قول صباح الخير بالروسي لبلـ. . .

- . . . شفي.

- بلشفي.

لم يكن هذا ليمنع السيد القنصل العام، بعد مضي زمن على نهاية الحرب، من التأكيد لجلالة القيصر، في كل مناسبة رسمية، على دوام إخلاص خادمه شديد التواضع وشديد الإخلاص. كانت موسكو بعيدة جداً عن دمشق، ولم يكن قد علم بعد أنّ شيئاً تغير في بلاد دوستويفسكي صاحب الأعمال التي احتفظ بها بالكامل. بالروسية !

أما أبي، فلم يكن يرغب بأية علاقة بروسية حيث تسقط الثلوج أكثر بمائة مرة من دمشق ويموت الجميع من البرد، عدا النبلاء.

ذات يوم، عاد من عند المُجَبِّر الذي كان أيضاً قنصل العجم، بمشيئة الشاه، حاملاً جوازاً أعجمياً جميلاً لم يكن أبداً بحاجة إليه.

- لقد عرضه عليّ وألحّ وحلف لدرجة أنّه خجّلني.

كانت تلك مجرد بداية. فالقنصل المُطَبِّب كان يقدّم الجوازات إلى مرضاه كما يقدّم واحدنا سيكارة إلى جاره، بحيث أننا أصبحنا بفضل التوائي مفاصل وألم في الظهر وشكلة رقبة ثلاث عشرة مرة أعجميين.

- هذه الجوازات للتسلية. . . إنها تسمح لي بأن أحلم بسفرات لن أقوم بها أبداً.

- مع ذلك فأنت أعجمي.

- بموجب أي قانون ؟

- شيه !. . . قانون الشاه الذي أعطاك القنصل على أساسه كل هذه الجوازات للتسلية كما تقول.

تناول أبي من على الطاولة آخر جواز أعطاه إياه المُجبِّر مع كيس الأملاح المعجزة والزهورات العجمية التي «تداوي كل الآلام» وفتحه على صفحة : الاسم - الكنية - مكان وتاريخ الولادة، ومدّه لي.

- خذ، اقرأ هذا...

قرأت. وأعدت القراءة. كان مكتوباً بحروف فارسية. ما كان أبي يكبرني إلا بخمس سنوات...

قال لي أبي :

- أتعرف أنت طبيباً يستطيع مداواة الفكشة وإعطاء مريضه بالوقت نفسه *فيزا* لشبابه الضائع ؟

*

في تلك الفترة نفسها، حين كان جدي بلشفياً وأبي ثلاث عشرة مرة أعجمياً، شهدت الحارة ظهور قنصل من نوع جديد. لأول مرة في تاريخ الديبلوماسية العالمية أخذ قنصل مزيّف يُصْدِر جوازات سفر مزوّرة باسم دولة أسطورية اخترعها بنفسه. كان هذا المخلوق يدعى (فرّوحه). لقاء قطعة أو قطعتين من الذهب (تُقبل أيضاً الأوراق النقدية والمجوهرات) كان المجاذيب يضعون أنفسهم بواسطته تحت حماية جلالة (حبادو الثامن) الذي كان، على حد زعم قنصله، ملكاً بمشيئة الله على *رضوانية*، وهي مملكة أكبر بمائة مرة من دول سوريا ولبنان وجبل الدروز سوية. وانطلى الأمر على كل من كان يحنّ إلى جوازات السفر المزوّرة التي راجت أيام الحرب. فالحماية أحسن من دون. لكن بما أنّ مملكة (حبادو الثامن) غير واردة في أي أطلس أو كتاب جغرافية، ضُبِط (فرّوحه) بالجرم المشهود وهو يخدع

آخر ضحاياه. وعُثِر في جيوبه لدى اعتقاله على خمس جوازات سفر باسمه لخمس جنسيات مختلفة. جوازات دفع فيها الكثير توقُّعاً لانسحاب مُبكّر من العمل. لكن لم يكن أيّ منها يحمل ختم جلالة (حبادو الثامن). كان (فرّوحه) خير العارفين من أية طينة جُبِل هذا الملك الذي اختلقه والذي، يا لنكران الجميل، لم يرفع حتى صولجانه ليحذره من عودة محتمة إلى الواقع.

العم عولِس

كنّا في الحارة متوهمين دوماً. وكان كل منّا يتخيل ويظن ويتشاءم ويبحث عن الألف وصفة ووصفة لإبعاد الشر التي ورثها عن أجداده. بالنسبة لبيت جدي كان الهاجس الأكبر هو حدوث شيء على غفلة. كانوا يتوقعون دوماً الأسوأ ويتخَوَّفون، خاصة إذا ما شافوا مناماً، مما قد يصيب أولادهم في حال تهور أحدهم وابتعد ولو لبضعة أيام عن كنف العائلة.

وهكذا، عندما كان أكبر أعمامي يقصد بيروت لجسّ نبض سوق الحرير أو لحضور أول قربان ابن أخته، «نور عيون» أخته، كانت الأمور تجري كما لو كان يستعدّ لمعركة ضد العماليق[1].

قبل أسبوع من «القفزة نحو المجهول»، كنّا ننشغل بحقائب السفر، فنُفرغها عشراً وعشرين مرة لنتأكد من أن شيئاً لا ينقص. ودائماً كان هناك ما ينقص: منشفة أو بابوج أو تعويذة أو عدّة حمام احتياطية في حال أصابت عين سرّاقة العدّة الأساسية.

«مهما احتطنا، إلا ما يقع ما ليس في الحسبان»، كانت تقول جدتي.

---

(1) العماليق من شعوب جنوب فلسطين قديماً، وقد حاربهم العبرانيون.

عشية سفر عمي، وبعد تفقّد أخير للحقائب، كانت جميع القوى العاملة في العائلة تستنفر لتحضير الزوّادة الضرورية لنجاة المسافر ضرورة طوق النجاة للغريق. في سلة كبيرة جداً تتوسطها مَطَرَتَين أو ثلاثة من الماء المعطّر بالورد أو اليانسون، كنّا نكدّس نصف دزينة بيض مسلوق وفطيرة بالباذنجان وفخذة خروف ودجاجة ذبحها الذبّاح وباركها قبل بضع ساعات لا أكثر، وليمون من «ليمونتنا» وفواكه و*بقلاوة*[1]، الخ. أي ما يكفي لتقديم ثلاث وجبات لفريق من متسلقي الجبال المقطوعين عن العالم. وفي صبيحة اليوم التالي عندما كنّا نجتمع حول البركة لشرب قهوة الوداع، كنّا نمسك الفنجان بيد والمنديل بيد، فالبكاء والنف واجب. دون إكثار أو إقلال. ثلاث دمعات مذروفة في صمت تعبّر أكثر بكثير من نحيب طويل.

كان «حفل الفراق» يبدأ عادة عند باب الدار. فيضع المسافر إصبعين على *المزوزة* ويُقبِّل يد والده وينتظره حتى ينتهي من الدعاء لله بمباركة ابنه وإيصال هذا المجازف إلى «برّ الأمان» وإرجاعه بالسلامة. آمين.

بعد ذلك، يأخذ ثلاثة من أقوى وأأمن حمّالي الحارة الحقائب الثلاثة والمِخَدَّتين والشمسية والزوادة وصرر المفاجآت للأخت وزوجها وصبيانها وبناتها ويضعوهم في العربة، تحت أقدام العربجي. وبما أنّنا نتمتع بروح النكتة، كنّا نشير إلى أثقل الحقائب ونسأل عمي إن كان متأكداً أنّه لم ينسَ شيئاً. . .

---

(1) بالعربية في النص.

لكنَّ الوداع الحقيقي كان يجري على رصيف المحطة، قبل الفراق بلحظات وبحضور كل أفراد القبيلة، عدا الجد والجدة البالغَين سناً يصعب فيه المشاركة بحفل مؤثر كهذا. لحظات لا آخر لها نغتنمها لنوصي «من سنشتاق له كثيراً» بأن يأكل لقمة صغيرة في كل استراحة، قطعة خروف أو فخذ دجاجة مع بيضة مسلوقة وثلاث مشمشات أو قطعة لوزينا؛ وألّا ينسى أن يشرب كل نصف ساعة كأساً كبيراً من الماء (***الكاسة في الجيبة، تماماً وراء كيس الفواكه***) وألّا يبتعد أكثر من خطوة عن الحمّالين البيروتيين البارعين بإخفاء الأكياس والحقائب، وأخيراً، وهذا هو الأهم، أن يتوجه بأسرع وقت إلى البريد «لإبراق» الخبر المُنتَظَر بالفرنسية وبست كلمات: «الحمد لله وصلنا بسلامة الصحة بخير». كما يتوجب عليه بأقرب وقت «إبراق» تاريخ وساعة العودة بخمس كلمات: «غداً الساعة السادسة معكم إنشالله».

تجدر الإشارة إلى أن بيروت كانت، ولم تزل، على بعد قرابة المائة كيلومتر من دمشق وأنّ القطار كان يقطع هذه المسافة بثماني إلى عشر ساعات وأنّ كل هذه التوصيات موجهّة لأربعيني سليم الجسم ويتمتع بكامل قواه.

للمرة الخامسة أو السادسة يدقّ الجرس معلناً الانطلاق «الوشيك». ينتظر رئيس المحطة (يا له من رجل طيب!) صعود راكب سمين متأخر إلى مقصورته، ليلوّح بالعلم الأحمر الصغير. تحوزق القاطرة وتبصق وتنطلق. نلوّح بالمناديل ونستمر بذرف بعض الدموع ونحن نركب في العربات عائدين إلى البيت حيث نطمئن الجدة متمنين لها «مثلما ودّعت تلاقي».

كان انتظار عودة (عولِس) يطول أربعة أو خمسة أيام حتى يأتي مأمور البرق صاحب الرقم القياسي بأكل الحلاوة في دمشق ويسلّم جدي باليد البرقية المبشّرة بالخبر السعيد : «غداً الساعة السادسة معكم إنشالله».

غداً ؟ لكننا كنّا في الغد ! احتاج مكتب البريد إلى أربع وعشرين ساعة لتسجيل البرقية.

كانوا يرسلوني في الحال إلى (أبو كامل) لأقول له أن يهيئ أحصنة عرباته الثلاثة. وكانوا يقطفون الليمون *لليموناضة*[1] العودة بالسلامة ويطحنون القهوة لتقديمها إلى الجيران الذين سيقومون بالواجب ويشاركون العائلة فرحتها. وقبل التوجه إلى المحطة، كانوا يطلبون من العشّية[2] تحضير كماءة باللحم أطرى من المشمش في عزّ الصيف.

الحمد لله، لم يكن «قطار بيروت» متأخراً كثيراً في ذلك اليوم (على رأي رئيس المحطة، إنّ تأخر قطار يصل عادة في موعده مقلق أكثر من تأخر قطار يصل دوماً متأخراً).

تطلق القاطرة نَفَساً أخيراً وتتوقّف لاهثة كعدّاء في نهاية السباق.

نهرع نحو المسافر المنهك تعباً ونساعده على إنزال حقائبه الثلاثة ومخدّتيه وشمسيته وزوّادته التي حضرتها أخته بالأمس مضيفة إلى الدجاجة والخروف والبيض المسلوق المعهودين حلوى بيروتية بالفستق واللوز والبندق والجوز والصنوبر. . .

---

(1) بالعربية في النص.

(2) هي الطبّاخة التي كثيراً ما كانت تعمل في بيوت الذوات (قاموس الصناعات الشامية).

بعد مضي نصف ساعة على ذلك، يدخل العم (عولِس) البيت حيث ينتظره، على جانبي *المزوزة*، جدي ليبارك عودته وجدتي لتدسّ في جيوب سترته وصدريته وبنطاله تعويذات وطلاسم ضد عين الحسود وسوء الطالع ونجم الشؤم والعفاريت ورفاق السوء والتأثيرات العاطلة، وبُعد الشر عنه، الأمراض الخبيثة.

«كل شيء ممكن في سفرة طويلة كهذه»، كانت تقول وتشهق وتبكي، وهي خير العارفين بالسفر. فخلال سبعين عاماً قامت على ظهر البغلة بالحجّ ثلاث مرات إلى جوبر، إلى مقام النبي (إيليا)، وفي كل زيارة كانت تنزل ثلاث مرات حاملة ثلاث شمعات كبيرات تقدّمها له لتشكره على استجابته لثلاثٍ من أغلى أمنياتها ألا وهي أن تُرزق صبياً ثانياً وتزوّج ابنتها البكر وتعثر على الخاتم الذي ورثته عن أمها وأوقعته سهواً في أحد أحواض العِطرة.

تبعد جوبر بالتمام ثلاثة كيلومترات عن دمشق. وكثير من الحجاج كانوا يقصدونها سيراً على الأقدام منشدين مزامير داود :

قدموا لله، يا عشائر الشعوب
قدموا لله عزة ومجداً. . .

لا يهم ! كل شيء ممكن أن يحدث على الدرجات الزَلِقة المودية إلى المقام. . .

بَنَّاء على الغيوم

كان (إسماعيل) غريباً عن الحارة. لكن الجميع كان يقصده دون غيره لتطيين أو تدعيم حائط أو سدِّ شق في السقف أو تقليب أرض بستان أو طلي واجهة بيت أكل الدهر عليها وشرب. كان قليل الكلام ولم يكن يخرج عن صمته إلّا ليلبّي من يطلبه بعمل.

في آخر النهار، كان يقبض دفعة على الحساب ويعيد مكشطه وكوسه وشاقوله ومسيعته لعند النجّار الذي أجرّه مستودعاً، ويتوجه بسرعة إلى إسطبل قديم مهدّم يدخّن فيه تباعاً سيكارتين من تحضيره : ربع تبغ وثلاثة أرباع حشيش. ومع النَفَس الأول، بضربة وحي، كان البنّاء يغدو شاعراً. فيترك «مدخنته» وقد غزتها الجرذان، ويطوف في طرقات الحارة ملقياً ما يرتجله من شعر. . . شعر يُقال أنّه من وحي شاعر *الرباعيات*[1] الملعون عمر الخيّام. . . وبعد كل رباعية، كان (إسماعيل) يطرح سؤالاً على المارة المحيطين به، دائماً نفس السؤال، سؤال بحرفين : **شو؟**[2] وحتى لا يتعكر مزاجه، كان المستمعون يردّون عليه مكرّرين الكلمة الأخيرة من رباعيته. وهذه عيّنة من حوار البنّاء وجمهوره :

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

- وسأموت يوماً دون أن أراكِ .**شو؟**

- أراكِ. . .

- عيناكِ جمر يحرق قلبي .**شو؟**

- قلبي. . .

لكن إذا كانت الرباعيات ما تزال تُقرأ وتُقرأ في كل اللغات بعد ألف سنة من موت كاتبها، فإنّ رباعيات صاحبنا البنّاء لم تكن سوى ومضات شعرٍ. وعندما كنّا نسأل (إسماعيل) إن كانت بيوت الشعر التي ألقاها بالأمس تذكّره بشيء، إن كان يستعيد في هذه الكلمة أو تلك وجه أو نظرة أو ضحكة امرأة، كانت أسئلتنا تبدو له غريبة وغبية.

كان يصرخ بنا من أعلى اسقالته :

- بالله عليكم، لا تهزؤوا برجل مسكين لا يعرف أن يقرأ أو يكتب. كيف تريدون لهذه الكلمات أن تذكّرني بشيء وأنا لا أفهم معناها ولا أعرف حتى كيف ألفظها ؟

لم يكن (إسماعيل) يتظاهر بفقدان الذاكرة. كل مساء، بعد جولته الشعرية، كان يعود إلى مسكنه ماشياً على الغيوم. إنسان آخر. وفي اليوم التالي لا يعُد يتذكّر شيئاً. كان ينام شاعراً ويستيقظ بنّاءً.

هكذا عاش سنوات طويلة، بين الحلم والحقيقة، ناثراً على طريقه ما كان الأغبياء يظنونه هذيان سكّير. لكن الجميع في الحارة صاروا يقلّدوه خاتمين كل جملة من جملهم **بـشو؟** وغدت هذه اللفظة بسرعة شعار المعجبين به.

لم أعد أذكر اليوم من منّا كان صاحب الفكرة، الحمقاء بعض

الشيء، بأن نتتبع (إسماعيل) لمدة أسبوع أو أسبوعين خلال ساعات «شروده» ونحاول «سلبه» ما يرتجله من شعر. واتفقنا أن يكمن له اثنان منا لدى خروجه من الإسطبل.

لكن في المساء الأول، وخلافاً لما كان متوقعاً، قام بجولته مترنّحاً وعاد إلى كوخه دون أن يقول لنا أية **شو**؟ وفي المساء الثاني، بَدَلَ أنْ «ينشد» رباعياته، أخذ يسبّ ويهدد صارخاً في وجه كل من يصادفه : «تفو عليك. . . يا حرام الشوم عليك». وفي المساء الثالث، لم يره أحد في الحارة. كان قد نام في الإسطبل.

لم يكن مرغوب فينا. لم يرتح صنو (إسماعيل) إلينا. لم يحتمل أن يكون مراقباً. وقد أفهمنا ذلك جيداً بانسحابه.

فرفعنا الحصار، وبدءاً من اليوم التالي، عاد إلينا الشاعر برباعياته وب**شو**؟ سعيداً كغطّاس عائد بلؤلؤة إلى زوجته.

لم نفهم اللغز.

- ما في لغز، قال لنا (أبو ناصر) عميد حشاشينا. الشعراء لا يحبون لا التابعين ولا سارقي الأنفاس. وإذا كان الله أو الحشيش يعطيهم أجنحة، فحتى يتمكّنوا من تضييع البعض والهروب من مراقبة البعض الآخر. . . والله كبير. وله في خلقه شؤون.

*

ذات صباح، اكتشفنا (إسماعيل) مسطّحاً على بطنه وسط «مدخنته» وفي يده عقب سيكارته الأخيرة.

- كان بنّاءً جيداً. . .

- مجنون بعض الشيء. . .

- كان كل ما يجنيه يذهب دخاناً.

- كنّا نحبه، لكن. . .

- على فكرة، من أين هو ؟

مضى الشاعر. . . وما عاد أحد يذكره.

لكن الذين فُتِنوا برباعياته العابرة مازالوا يذكرون ويرددون أحياناً الكلمة الوحيدة التي بقيت من أعماله : **شو؟**

دخان...

عندما كان يحنّ إلى الماضي، كان (إبراهيم زيتون) يروي لأولاد أحفاده الورطة التي وقع فيها جد جده الطفران يوم طلب في مقهى عاطل الصيت أركيلة مع *شَفّة* قهوة صغيرة. وبعدما دخّن الأركيلة حتى آخر نَفَس وشرب *الشَفّة* حتى آخر نقطة، كاشف القهوجي أنه للأسف غير قادر على الدفع وسيكون له ممنوناً لو سجّلها على الحساب. فقام القهوجي الذي لم يكن ليديّن أمه قشّة من مِقشّته بطرد هذا المجنون بعد أن أوسعه ضرباً ومزّق *شرواله* وسط الشارع وصادر طربوشه وبابوجه مقسماً أن يشويه حيّاً في فرن صديقه (أبو نادر) الخبّاز إن عاد ورآه على بعد خمسمائة مرمى حجر من الحارة.

«في ذلك اليوم، تابع (إبراهيم) كلامه، عاهد جد جدي نفسه أن يحاول كسب عيشه بعرق جبينه بدل أن يخاطر بحياته ويتشاطر للحصول على أراكيل غير صالحة أصلاً للتدخين. وأخذ يبيع *التمباك*[1] في نفس الدكان الذي أبيع فيه أنا اليوم، من بعد ابنه وحفيده وابن حفيده. وهكذا أصبحتُ من حيث لا أدري من أوائل

(1) بالعربية في النص.

تمبكجية[1] دمشق. كله قسمة ونصيب. لو كان (داود زيتون) يملك ثمن أركيلة ***وشفّة*** قهوة في ذلك اليوم، لكنتُ أصبحتُ حدّاراً أو حاخاماً من الدرجة الثالثة أو عالماً أو حتى صيرفياً أميركياً ثرياً. . .».

*

في التسعين من عمره وبعد التهابي رئة وثلاث وقعات وخِيمة وكسر في الساق وآخر في الكتف وعشرات النزلات الآتية على حين غرّة على صدره وعلى غيره، ظل (إبراهيم زيتون) يتحدّى أخطر توقّعات الأطباء والمطببين والمنجمّين والعرآفين. واستمر، كما لو أنّ شيئاً لم يكن، بتفتيت وهرس أوراق ***تمباك*** «***عجمي***[2] أصلي غير مخلوط» كان يشتريه منه الذوّاقة ومَنْ دونهم بكثير. . .

متقوقعاً في أقصى داكونته خلف أكياسه وقبّانه وأوزانه المصفوفة بعناية على رُخامة وكتب صلواته التي لم يبقَ من معظمها سوى الجلدة، لم يكن (إبراهيم) يكلّف نفسه عناء النهوض من كرسيه الصغير سوى لمعارفه وزبائنه المخلصين. أما الباقون، فما كان يمنحهم سوى إيماءً بالنهوض. «الواحد بهذا العمر»، كان يتمتم لا ليعتذر، بل ليُفهم الذين قد يؤاخذوه بأنّه رفع الكلفة نهائياً منذ آخر وقعة وقعها.

ككثير من زبائنه وأصدقائه القدامى، كان لـ(إبراهيم) لحية. لحية طويلة، مهملة ومزاجية بعض الشيء، تمتاز بأنها لا «تُزهر» إلّا

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

مرتين في السنة، ولسبب غامض على خدّ واحد فقط. في الربيع كانت تنمو على الطرف الأيمن وفي الخريف على الأيسر، مما جعل باقي المُلتحين في الحارة يقولون أنّ «تنبكجينا» بهيئة واحدة وبوجهين.

أحد «العلماء»، وهو صاحب موسوعة ويُفضِّل عدم ذكر اسمه، كان يزعم أنّ الوجه الأول (لم أعد أذكر إن كان الطرف الأيمن أم الأيسر) «يُمثِّل» الإنسان العادي، البائع، التاجر، الإنسان السَافِر، في حين يشي الثاني بالإنسان الباطني، السرّي، الذي يحتفظ لنفسه بأفكاره الخاصة وتأمّلاته في الحياة والموت والآخرة. وهذا الإنسان هو الذي أخذ يناجي نفسه بعد نزلة صدرية مستعصية ويحرّك شفتيه دونما توقّف كما لو كان في حوار مع محدّث خفيّ.

- بماذا تهمهم؟ سألته يوماً بينما كان منكبّاً بشيء من الطقوسية على عملية حساسة هي استخلاص بعض أوراق ***التمباك*** من أكياسها دون معسها.

- لست أهمهم، أنا أرتّل آيات لنبي، أجابني وقد بدأ بتفتيت أولى تلك الأوراق.

- لأيّ نبي؟

- لنبي لا تعرفه.

- ولكنّي أعرف كل أنبياء التوراة.

- هذا النبي ليس من التوراة. إنّه نبي أرسله لي الله لينذرني بأن ساعة الحساب والعقاب قد آنت لي.

- لكن لِمَ هذا العقاب؟ وماذا فعلت حتى أغضبت الله؟

أصابته نوبة سعال طويلة تبعتها حازوقات قطعت نَفَسَه.

- الله سيعاقبني لأنّي بعثُ هذا السمّ لمخلوقاته .*التمباك* سمّ حقيقي، كل مدخّن يدرك ذلك بعد فوات الأوان. وأنا أكثر واحد من آل زيتون استنشق دخانه. هذا ما عدتّ وذكرّت به نبيي صباح اليوم دفاعاً عن نفسي. سبعون عاماً من دخان *التمباك* ! وإذ به يجيبني : «وماذا عن إرادتك ؟» إرادتي ! . . .

عادت حازوقات التعب والخوف لتهز (إبراهيم).

- كله من هذا . . . قال وهو يشدّ طرف كيس سُجِّلت عليه الماركة الأصلية : **عجمي**.

وسمعته يتمتم :

- صار مزعجاً هذا النبي الصغير. وفوق ذلك مزاجه سوداوي. مذ أقام في داكونتي، تحت مقعدي، وهو يخبرني أخباراً سيئة. بالأمس، ما أن انتهيت من تلاوة مزاميري اليومية الستة، حتى تنبّأ لي بأنيّ لن أعمّر أكثر من (أبو زكي)، عميد زبائني. والواقع أن (أبو زكي) المسكين ينازع . . .

*

بعد عامين، غادرت الحارة تاركاً (إبراهيم زيتون) على كرسيه خلف أكياس *تمباكه* وميزانه وأوزانه.

لم يكن قد انتهى بعد من استنشاق دخانه . . .

راشيل... واحدة بين كثيرات

كانت (راشيل حلبي) تردّ على جاراتها في الدار القلقات لرؤية جسمها يذوب ويتلاشى، بأنها لم تعرف طعم الراحة منذ أكثر من ثلاثين عاماً. كانت تقول: «لم أعد أعرف معنى هذه الكلمة. عندما يلفظها أحد أمامي أشعر وكأنه يكلمني بلغة غير لغتي».

كانت (راشيل) قد تزوّجت صغيرة من (يعقوبه حلبي) الذي لم تكن تحبه، لكنه كان من نفس شارعها، وفضّلته على صديق أخيها الذي كانت تحبه، لكنه كان من غير شارعها؛ أي غريب سيُبعدها عن العش العائلي. أما أهلها، فلم يؤثروا واحداً على آخر، لا من كان من شارعهم ولا من لم يكن منه. كانوا يعتقدون وبحق أنّ على (راشيل) أن تزن وتقارن بنفسها خصال المتقدِّمَيْن لها قبل أن تحسم الأمر لصالح أحدهما، متمنين لها في الوقت نفسه أن تسحب الورقة الرابحة بإذن الله. لكن كما فعلت منذ ولادتها، سحبت (راشيل) الورقة الخاسرة بزواجها من (يعقوبه) لسرّاء محتمل وضرّاء محتّم. ولم تمضِ عشرة أشهر أنجبت خلالها توأمين، حتى أدركت أنّ زوجها بدوره معثّر الحظ ولن يقدر أبداً على إعالتهم من المهن البائسة التي يمارسها: بويه جي، ماسح شبابيك، معزّل برك وآبار، مُفرشي سجاد، الخ. وهكذا، بعد وضعِها الثاني، قصدت ابنة خالتها لتعلّمها النقش على النحاس. كانت قد سمعتها مراراً تقول أنّ هذه

الصنعة جيدة خاصة عندما تُمارس في البيت. لكنّ النقش في البيت هو امتياز لا يحق إلّا لعاملات لديهنّ سبعة أطفال على الأقل وعشر سنوات من القِدم في مشاغل (نسّام ومصري). لم تكن (راشيل) تتمتع بأي من هذا. لا يهم ! إذا لزم الأمر، فهي مستعدة للعمل في أقاصي المدينة لمساعدة زوجها المتلكئ على تحصيل ما يكفي لسد رمق العائلة بعدما قلّت الشبابيك التي يمسحها والسجاجيد التي يفرشيها والبرك التي يعزّلها. فإذا كانت ابنة خالتها مستعدة أن تُريها كيف تعمل حتى يطِيع المِنقَشُ المِطرَقةَ دون أن ينزلق أو يشطب النحاس عشوائياً، فستتدرب في بيتها على صينيتها الجميلة، هدية عرسها من خالتها فرحة.

كانت ابنة الخالة طيبة القلب، لكنّها لم تكن تقدر أن تضيّع دقيقة واحدة من وقتها. عندما يكون العمل بالقطعة، كما تعمل هي، يصبح الوقت من ذهب. ومع ذلك، إكراماً للمرحومة أمها، قَبِلَت أن تقود أولى خطوات (راشيل). وبعد دروس تطبيقية دامت شهرين راحت ضحيتها هدية الخالة فرحة اكتشفت (راشيل) أنّها موهوبة في تطويع المِنقَش وقُبِلَت لفترة تجريبية لدى (نسّام ومصري).

كانت مشاغل (نسّام ومصري) التي تحمل اسم صاحبيها نجّارَي الموزاييك، تتصدّر قائمة «المعالم» التي لا يمكن للسائح من أينما أتى أن يفوّت زيارتها. كانت تُصدِّر إلى كل عواصم أوروبة وإلى الأميركيتين قطع الموزاييك التي اشتهرت بها من طاولات وكراسي وكنبات ومكاتب وطربيزات تزيّن صالونات السفارات والمعارض الدولية. وكان صيتها الذائع يعود أيضاً إلى صوانيها وكؤوسها وركواتها وفناجينها ومِنشَفاتها المنقوشة والمطعّمة بالفضة التي يمكن شراؤها «بسعر مخفّض» في ختام الجولات السياحية.

آه من تلك الجولات ! كانت جميع العاملات تكرهها، إذ كان يعقبها دوماً صورة تذكارية يلتقطها الزبائن، على مهلهم، طالبين من «شخوصهم» الجمود التام. كم من «لا تتحركوا !» كنّ يسمعن طوال النهار بكل اللغات. وكانت الابتسامة الإجبارية والمغتبطة أمام العدسة أكثر ما تكرهن في هذه «الاستراحات». كان على الصور إظهار سعادة الكدّ والكدح لدى (نسّام ومصري) خلال عشر إلى اثنتي عشرة ساعة عمل يومياً. والويل لمن تسمح لأدنى علامة كلل أو تعب بالظهور على وجهها. كانت التعليمات واضحة : أي عبوس أمام الزائرين يعني الفصل مباشرة من العمل.

كان أحد المعلّمَين يهودياً والآخر رومياً أرثوذكسياً. لكن معظم العاملات كنّ من حارة اليهود، وذلك لشهرتهن في إجادة العمل بالمطرقة والمِنقَش فضلاً عن اكتفائهن بالقليل وهذا هو الأهم.

كانت المشاغل أشبه بعنابر مفتوحة الجوانب تدوي جدرانها بصرير مبارد ومناشر نجاري العنبر المتوسط. وكانت العبدات تحت رحمة حارِسَيْ العنابر. لكن للحصول على أفضل مردود منهن، وبناءً على نصيحة مجانية قدّمها سائح أميركي، فقد سمحا لهنّ بالغناء. لا بل كانا يأمرهن بذلك. وكلما ارتاحت من «الوجع الصغير» في خاصرتها، كانت (راشيل) تطلق بطيبة خاطر إحدى الأغنيات الثلاثة التي تعرفها فترددها زميلاتها من بعدها.

كانت تغني لتنسى أنّ التهاب المفاصل يتربص بهن وأنّ رطوبة الحصر المهترئة حيث تجلسن لن ترحمهن.

في نهاية الأسبوع، يوم القبض، كانت تمر الواحدة تلو الأخرى أمام طاولة طويلة، من الموزاييك طبعاً، تمركز خلفها

المحاسب محاطاً برئيسَيْه. لدى مرور كلّ من موظفاتهم، كان هؤلاء يتشاورون بالنظر ثم يُلقي أحدهم رقماً. كانت الأجور «متقلّبة» جداً ويتم تقديرها اعتباطياً حسب... رأس العاملة.

- لكن يا معلم، الأسبوع الماضي عملت أقل وأعطيتموني أكثر... ووعدت السمّان أن أفيه بجزء من...

- اللي بعدها...

لم يكن هذا ليمنع هؤلاء «الناجحون بعرق الجبين» الذين ليسوا بمجوِّعين وإنّما مجرد استغلاليين، من الاطمئنان على صحة «الصغير» أو دفع أجرة الطبيب أحياناً وعند الرمق الأخير، أو حتى من الموافقة على سلفة صغيرة جداً، عند الحاجة القصوى وبشكل استثنائي وخاص، على حد تعبيرهم.

- لا تحسبونا فاتحين بنك!

*

تمر أيام أقول فيها لنفسي: «انسَ هذه الـ(راشيل). لم تكن إلا (راشيل) بين كثيرات. الأوْلَى بك أن تفكر بكل راشيلات الحاضر: راشيلات بنغلادش والسودان واريتريا. فكّر بالراشيلات العاملات ليلاً نهاراً في مشاغل الخياطة وعلى أرصفة مانيلا وشوارع بومباي. فكّر براشيلات (بوخنفالد) و(بيرغن بيلزن) و(أوشفيتز)[1]...»

أنا مستعد أن أنسى (راشيل) حارتي، مستعد أن أتركها تتوارى وراء كل (راشيلات) العالم، لكن ليس قبل أن أروي المحطة الأخيرة في رحلتها.

---

(1) Buchenwald! Bergen-Belsen! Auschwitz هي معسكرات اعتقال نازية.

بعد عشر سنوات من العذاب في مشاغل (نسّام ومصري)، فُصِلَت من العمل بسبب «ضيق التنفس»، نفس المرض الذي قضى فيه زوجها واثنان من أولادها. لم يُوافق على عملها في المنزل ولم تحصل على أي تعويض. ما من أجر إلا لقاء عمل، وعندما لا نعمل لا نتقاضى أجراً. و(راشيل) لم تكن تعمل، لم تعد قادرة على العمل وبالتالي ما كان يحق لها شيء. المعادلة بسيطة بساطة «اثنان واثنان يساويان أربعة» في مسرحية (دون جوان).

لم يبقَ عندها سوى ابنتين نجحت في تشغيلهما خدّامتين، وصبي لم يسحب بدوره، حسب تقاليد آل (الحلبي)، سوى أوراق خاسرة.

كان هذا حال (راشيل) حارتي عندما اقتحمت الكنيس الكبير ذات مساء، وقت صلاة *آرفيت*[1]. تَوَجَّهَتْ مباشرة نحو خزانة أسفار التوراة، فتحتها على مصراعيها، فكّت أزرار قميصها، وتحت أنظار المؤمنين المذهولين، صرخت بكل ما بقي لها من عزم وهي تضم أحد أسفار التوراة إلى صدرها العاري:

- أسألك يا رب أن تقول لي الآن وهنا لماذا تعذب هكذا أكثر مخلوقاتك بؤساً قبل أن تناديهم إليك؟ لماذا؟

«ذلك الذي يسمع كل الأصوات» لم يسمع في ذلك المساء صرخة الاستغاثة هذه. وماتت (راشيل) يائسة على إحدى الدرجات المؤدية إلى وصاياه العشر.

كانت قد سحبت مجدداً الورقة الخاسرة.

---

(1) آرفيت صلاة المساء.

بسبب قبلة

في ذلك الصباح كانت الحارة مفجوعة. لقد ضرب القضاء والقدر ضربته فأصاب على عمى إحدى أكرم عائلات الطائفة، عائلة كنا نفخر بها ونقدمها مثالاً لتلك المهددة بالتفكك والانقسام. وإذ كانت عائلة مثالية ولا يمكن لها أن «تزلّ»، شعرنا جميعاً بالخزي والعار. وما عاد أحد يجرؤ على التطلّع بجاره خوفاً من أن يرى نفسه مضطراً للحديث عن «ذلك الموضوع».

- الله كبير ! الله كبير !. . . صاح خطيب في (ساحة السبيل) بصوت عاصف. ما حصل لبيت الحموي هو إنذار. لنَتُبْ ونصلِ حتى يشمل الله برحمته هؤلاء الضالين !

*

بدأ كل شيء بقبلة. قبلة ربما. . . أطول بقليل من تلك التي يسترقها صبيان وبنات الحارة مقسمين على الوفاء أبداً لبعضهم البعض. لكنّها لم تكن إلا قبلة.

هانحن نعود إلى أنف كليوباترة : لو كان أنف (روزينه حموي) أطول، لتغيّر وجه الحارة ولما أسودّ وجه أحد منّا.

في ربيعها السابع عشر، كانت (روزينة) من الجمال لتُطيّر عقل راهب عمودي. كان يُقال أنّ لا مثيل لها وأنّ الله كسر القالب بعد

أن خلقها وأنّ ملاحتها تتحدى الزمان. وبدا الجميع متفقين أو شبه متفقين على ذلك، عدا بعض الأمهات الزنخات اللواتي لم تتمكن من تصريف ذريتهن. كنّ يهمسن لدى مرورها : «لا شيء يدوم. سيأتي اليوم الذي تنام فيه الواحدة حالمة بكل أمراء الأرض لتستيقظ وقد أصبحت عانساً. الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، و(روزينة) ستشيخ مع الوقت مثلها مثل باقي فتيات جيلها».

في الفترة ما بين الفصح والغفران فقط، رفضت صاحبة الحسن والجمال ثلاثة عروض للزواج. ولتفسير هذا الرفض قيل في صالون الست (سامحة لارنادو)، السيدة الأولى في حارتنا، أنّ (روزينة) تهيم حباً.

- لكن بمن؟ سألت الست سامحة (عزيزة الطرزي) الثرثارة، صاحبة اللسان اللاذع، والأكثر علماً بأمور الحارة.

- لينقطع لساني لو تلفظّت باسمه. من تظنينني؟ أجابت وهي تُمثّل دور العفيفة المُهانة.

ما أن ابتلعت تباعاً ثلاثة معيّنات من البقلاوة حتى حنثت بيمينها : الغاوي النذل ليس سوى مُحَضِّر الأدوية في صيدلية (التقدّم).

- مسلم؟!

- مـ ـ سـ ـ لـ ـ م !

الحقيقة أنّ الجميع كانوا على علم بـ«علاقة» (روزينة). وقد شهد العديدون، ويدهم على التوراة، لكن دون توراة، أنّهم رأوا «البنت المسكينة» برفقة ذلك الضال، لعنه الله ومحاه من سفر الحياة.

بالطبع، وحدهم أهل (روزينة) كانوا يجهلون أنّ ابنتهم نور عيونهم تتدرج نحو الهاوية أي الفضيحة. ووقع ما كان في الحسبان. فذات مساء، باغتت شرطة الأخلاقية الفظيعة «اليهودية» في أحضان «عشيقها». كانا يقبّلان بعضهما. بالجرم المشهود. أُوقِفَ المذنبان فوراً، وبعد استجواب قصير أُرجع المُحَضَّر إلى عقاقيره وفُرضت على تلك التي لم تُعد في نظر القانون إلّا *شرموطة*[1] الإقامة الجبرية في أحد المحلات العمومية حيث تكفلت «بترونه» بتقويمها.

في اليوم التالي، بُلِّغ بيت (الحموي) أن ابنتهم صارت لمن تسمح له إمكانياته بالحصول عليها.

يهودية في المحل العمومي ! كأنّ العالم انهار من حولنا. لا شك أنّها مكيدة شرطة تنفذ أوامر ألدّ أعداء الشعب اليهودي وتوراته.

تحرك الجميع سعياً لتحرير «الأسيرة». فقرعوا كل الأبواب وصاموا وصلّوا وتذلّلوا لموظفين صارمين عارضين عليهم كل ما يملكه بيت (الحموي) مقابل وعد صغير بإبداء بعض التفهّم بخصوص موضوع (روزينة). بلا جدوى. لقد تكّرم الموظفون بقبول المال والمصاغ الذي قُدِّم لهم «عرفاناً بجميلهم» وما لبثوا أن نسوا أمر *الشرموطة*. وحسب قول مأمور شرطة الحي المعني خاصة بالقضّيات، البنت أصلاً «مشي حالها». وإمعاناً منه في القساوة أضاف أنها بالمحصلة لا تعاني كثيراً.

لكننا واصلنا التضرّع والتوسّل والتفاوض وعقد الآمال. . . حتى جاء اليوم الذي سقط فيه (فؤاد حموي)، والد (روزينة)، ميتاً

---

(1) بالعربية في النص.

في الشارع، ويا للمصادفة الأليمة !، أمام واجهة صيدلية (التقدّم).

أما والدتها، فقد دفنت نفسها في غرفة تلك التي كانت تُسمّيها ***يا روحي***[1]، وجيرانها يسمعوها تنادي ليلة بعد ليلة ***وينك يا روزينة***؟[2]

*

لم يعلم أحد أبداً إن كانت (روزينة) قد عانت طويلاً. لكن من المؤكد أنها قضت بقية حياتها في محل عمومي.

بسبب قبلة. . .

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

روزا الخدّامة

كانت (روزا باروح) من جنس المحرومات اللواتي كان خير لهن لو عُدْنَ من حيث أتينَ حسب قول داية الحارة وهي تقطع حبل سرتها. لقد ولدت خدّامة. . . وكأمها من سلالة خدّامات.

ولإكمال هذه السيرة الموجزة، لا بد من القول بأنّها في الأربعين كانت تبدو وكأنها في الستين، وأنّها كانت سكوتة صموتة وأنّها كانت تناجي نفسها دوماً بـ«يا حزينة يا (روزا)» لتنتهي بـ«هيك الدنيا، شو بدنا نعمل».

أما والداها، فقد امتثلا كليّاً وبخشوع لوصايا الحاخام الذي بارك زواجهما. فلم يكونا سعيدَين وانجبا الكثير من الأولاد.

كانت (روزا) تقول لي عندما أجلس قبالتها لمساعدتها في تنقية العدس على صينية نحاس كبيرة : «أذكر أمي دوماً حُبلى. ولو بقي كل اخوتي وأخواتي في هذه الدنيا، لكنت اليوم أكبر. . . انتظر لأعدّهم. . . أكبر أولاد (الباروح) الواحد أو الاثنين وعشرين. هذا دون ذكر الأخير الذي لم يظهر بيننا إلّا لفترة قصيرة : الوقت الكافي لقتل أمه. الحمد لله أنّي غير قادرة على الإنجاب، هذا ما أكدّه لي الطبيب. ماذا كانت (روزا) لتفعل بطفل ؟ وبماذا كانت ستعيّشه إذا ما نجا بمعجزة من الأمراض والأوبئة والحرمان وهي قدر الناس من أمثالنا ؟»

منذ مدة أخذ نظرها يضعف وفرضت عليها أصابعها الملتهبة المفاصل نوعاً من البطالة المُخجِلة والمُخزية. صارت مجرد خدّامة عجوز لا أحد يريدها ولم يحتفظ بها بيت جدي إلا من باب الشفقة، إذ كُتِب : «***ستُطْعِم حمارك حتى عندما لا يعد يقوى على حملك***».

كانت تتكلم بصوت أَخَنّ يذكّر أحياناً بصوت من يتكلم من بطنه محركاً دمية قبيحة في مسرح العرائس.

كانت تقول لي عندما آخذ منها مطحنة القهوة التي لم تعد تقوى على تثبيتها على حضنها : «آه من هذه الأيدي ! هذه الأيدي المسكينة. . . مذ كنت في العاشرة وهي متشققة كأيدي الغسّالة. كنت وأمي، عندما لم تكن تنتظر حدثاً مباركاً، واثنتين من أخواتي الصغيرات نمضي نهاراتنا وبعضاً من ليالينا في صوبنة وفرك وفضّ أكوام الغسيل في ماء مجلِّد نذهب لضخّه من بيت الجيران في آخر الشارع».

ما من أثر لغضب أو مرارة لدى (روزا). لقد سلّمت نهائياً بأنّ «الدنيا هيك» و«شو بدنا نعمل».

- أنت الذي تذهب إلى المدرسة تستطيع حتماً أن تجيب على إحدى الأسئلة التي أطرحها على نفسي، وأبسطها هي : لماذا لم يقدّم لي أحد أدنى نصيحة لمساعدتي على تحسين عيشي ؟ عندما كنتُ بعمرك، كنت أخدم في بيت (صبري)، أُناس أتقياء جداً عاملوني دوماً دون قساوة، كما ينبغي أن تُعامل مخلوقات الله. حتى أني ما زلت أذكر جملة كثيراً ما كان والد معلّمي يقرؤها بصوت عالٍ من كتاب أضخم وأثقل من الكتب التي يقرؤها جدك كل

صباح، جملة قصيرة جداً تدوي في رأسي كلّما لاح نجم الشؤم في سمائي. سأقولها لك : ملعون... نعم... ملعون... اليوم... اليوم الذي ولدت فيه.

- يا روزا، هذه الجملة هي صرخة رجل صالح اسمه أيوب بلاه الله بالشقاء. كان يقول، وهذا في التوراة : «***لا كان نهار ولدت فيه***...»

- إذن يحق لروزا أيضاً أن تلعن اليوم الذي ولدت فيه... لكنّها لا تفعل حتى لا تجلب لنفسها نجم شؤم آخر...

خمس عشرة سنة مضت على خدمة (روزا) في بيت جدي. كان رابع بيت تخدم فيه. في الثاني والثالث، أي في عمر العشرين والثلاثين، كان لا بدّ لها من أن «تمر بذلك»... عملاً بحق السيد على مخدومته.

- ما كنت أجرؤ على قول «لا» لأسيادي أو لأبنائهم. وما كان لباب حجرتي من قفل. كنت بالنسبة لهم مجرد شيء يدعكونه ويدلكونه متأوّهين ورامين عليه كل أثقالهم المتخمة بالأكل. أصلاً الخدّامة لا تختار : إما أن تسكت أو «احملي بُقْجَتك والله معك». لكن لا أدري لماذا أحكي لك كل هذا. أنت بالكاد في السادسة عشرة ولم تزل صغيراً على فهم كل ما كنت أشعر به بعد... بعد... المهم بعد.

- ولم تخبري أمك؟

- كانت قد ماتت... ولا بد أنها كانت قد «مرّت بذلك» هي الأخرى من قبلي. الحاصل له، هيك الدنيا، شو بدنا نعمل...

في أحد أمسيات أيّار، كنّا وحدنا في أرض الدار، تحت

الليمونه. باغتّها وسألتها إن كانت قد أحبت في يوم من الأيام.

تردَدَتْ لحظة ثم قَرَّبَتْ يدي من شفتيها وهَمَسَتْ :

- لا أحد. لا ، لم يقل لي أحد يوماً أنه يحبني.

- وأنتِ ؟ أنتِ. . . هل أحببتِ أحداً ؟

- آه ! أنا. . . لقد تأخر الوقت. ستغيب الشمس ومازال على روزا تحضير العشاء. انظر ما أجمل السماء. . .

ذكريات الغروب في دمشق، في شهر أيار، من أحلى ذكريات حياتي. كانت لحظات نعيم، أفهم فيها لغة الشجر والزرع والورد. أحدّثهم، وكل ورقة، كل بتلة، تغني لي، لي وحدي، ابتهاجاً بالحياة هنا. ابتهاجاً بالوجود.

- روزا، لم تجيبي على سؤالي. أنتِ لا تثقين بي.

- كيف تقول هذا ؟ أنا أعرفك منذ وصلت لهذا البيت وكنت في حضن أمك المسكينة. . .

- لم أعد طفلاً. . . لو كنتِ تثقين بي فعلاً. . .

- لو كنتُ أثق بكَ فعلاً لأجَبْتُ على سؤالكَ ؟ أجل ! أحببت شخصاً مادمت تريد أن تعرف كل شيء. وكنت سأظل أحبه لو تركه الله يعيش. لكن قبل أن يغمى عليّ في بداية هذه السنة، كانت نهاراتي تبدأ، صيفاً شتاءً، عند الفجر، ونادراً ما كانت تنتهي قبل منتصف الليل. كل يوم، خلال اثنتي أو ثلاث عشرة ساعة، كنت امسح وأجلي وأغسّل وأكوي وأخيّط وأرقّع وأكنّس، وعندما كنت أمنح نفسي لحظة راحة حتى لا أنهار من التعب، كانت العَشّية تُشَغِلّني بالخضار. كنتُ أركض وأركض. . . كنتُ مقبورة في قبو

الحياة. والذي كنتُ أحبه وكان يمكن أن يحبني، كان يمرّ من فوقي دون أن يراني.

هكذا قدمت لي (روزا) «تفسيرها» لقصيدة (آرفر)[1] الغنائية الشهيرة التي كنت يومها أجهلها كما أجهل ***الماهابهاراتا***. كانت تشهق وتبكي وهي تنزع ظفر كل حبّة من حبّات الفول الذي فلّقته. كانت أرض الدار خاوية. وقد فاحت رائحة الورد والصريمة. وما كنّا نسمع سوى بقبقة أركيلة جدتي التي انزوت في غرفتها بعدما سقت العِطرة والأرطنسية.

- ها قد حصلت على جواب سؤالك، قالت (روزا) ماسحة عينيها.

كانت تلك أول وآخر مرة تحكي فيها عن نفسها، تبوح بنفسها، تخون نفسها. ولم أعرف أبداً من هو الرجل الذي كان يمر فوق قبو حياتها، حسب تعبيرها الجميل، عندما كانت تبحث عن بعض الحب أو ربما فقط عن بعض الحنان.

قبل أن تحمل الطنجرتين المليئتين بالفول إلى المطبخ قالت لي :

- كلّمتكَ اليوم كما أكلّم نفسي. لِمَ فعلتُ ذلك؟ بالتأكيد لأنك كلما ابتسمت لي، أقول لنفسي أنه على الأقل بقي لي هذا. . . الآخرون في الحقيقة لا ينظرون لي، أو بالكاد. مع ذلك، الجميع هنا طيبون مع روزا.

*

---

(1) فليكس آرفر (1806- 1850) شاعر وكاتب مسرحي فرنسي، له قصيدة حب شهيرة تبدأ بـ«الروحي سرها، لحياتي لغزها...»

عندما غادرتنا (روزا)، كان في البقجة التي سلّمها جدّاي لإحدى أخواتها النقود القليلة التي صمّدتها وخاتم عرس أمها وزوجي جوارب من الصوف السميك وتعويذة ضد عين الحسود وصورة صغيرة جداً داخل قلادة صدئة يبدو فيها، عند إمعان النظر، وجه رجل. . .

«***هذا ما يبقى من الفقير بعد طول شقاء***».

من فوق العريشة

كان ذلك في أحد أيام تشرين الأول من عام 1925 نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من بعد الظهر. كنت عائداً من المدرسة حين رأيت قافلة من مئات الجمال مُنبسطة على طول الشارع المستقيم. ولم أكن لأعيرها أي اهتمام (القوافل كثيرة وأينما اتفق) لو كانت الجمال تحمِّل كعادتها أكياس حبوب وملح أو خشب حور أو سنديان أو زيتون. لكن هذه القافلة لم تكن كغيرها من القوافل : كانت تحمِّل جثثاً ولا شيء غير الجثث. كانت جثث جديدة لفلاحين أُتهِموا بالأمس بالتحريض على *ثورة*[1] وقضوا على يد مرتزقة عاملين لحساب سلطة الانتداب (فرنسة !) حتى يكونون «عبرة لمن اعتبر».

كنت مسمراً في الأرض من شدة الخوف والهلع. وكنت، كما في الكابوس، أسمع نحيب النساء المؤلم وهي تركض حافية خلف قافلة الموت، حارثةً وجوهها بالأظافر، وتردعها حربات نفس المرتزقة الذين أعدموا للتو أزواجها وأخوتها وأولادها وآباءها.

ماذا كانت تقول؟ كانت تصرخ بأسماء موتاها ***يا أحمد !*** . . . ***يا علي !*** . . . ***يا رشيد !*** . . . ، كما لو كانت قادرة على إيقاظهم، على بعثهم. لكنّهم كانوا أمواتاً وظلوا يتأرجحون مثنى مثنى على

---

(1) بالعربية في النص.

ظهور الجمال التي كانت جمالهم قبل ساعة أو ساعتين لا أكثر. وليعلم الجميع بهذا العقاب، عُرِضوا طول الليل في ساحة (المرجة)، مُسطّحين على الأرض قبالة ربهم، قبل أن يتم تسليمهم (وبأية حالة !) إلى عائلاتهم.

في صبيحة اليوم التالي، كان خبر تلك «الحملة العقابية» قد انتشر كالبرق في أرجاء البلاد. وبالفعل، أتى «الدرس» بثماره سريعاً. فقد قام آلاف السوريين، خصوصاً الفلاحين منهم، بحمل السلاح والانخراط في المقاومة لشنّ حرب ضارية ضد ***الفرنساوي***.

من كل مشاهد المأساة الدموية التي تلت «يوم المجزرة» والتي كُتِب لي أن أشهدها، لن أنقل هنا سوى مشهد واحد : ذلك الذي خلّف أعمق ندبة في صباي.

بعد مضي أيام قلائل على أول تسلل للثوار إلى أسواق دمشق وضواحيها، أُعلن حظر التجول لمدة عشرين ساعة يومياً على أمل سرعان ما تبدد في العثور عليهم ومحاصرتهم وتصفيتهم. لكن كان «لقطّاع الطرق» أكثر من عنوان (كنّا طبعاً، وهذا ما انفك أساتذة مدرستي يكررونه، أمام «قطّاع طرق خطرين»). كانوا يطلقون النار من الأسطح والنوافذ ومن كل الزاويا على جنود جازفوا بدخولهم في أزقّة متشعبة وأضاعوا طريق العودة إلى ثكناتهم. وكل قنّاص كامن وراء فراش أو كوم تِبْن كان يحلم أن يُسقط ببندقيته إحدى طائرات «الكوكو» التي تحلّق فوقنا رامية قنابلها على دكاكين ومتاجر ومخازن وأراض وبيوت آهلة.

بيتنا الذي اعتقدنا أننا بمنأى فيه عن هذه الغارات القاتلة، ما كان يفصله عن بيت جيراننا الشيعة سوى حائط آجر تسلّقته عريشة

عتيقة لكن وارفة توزّع أوراقها وظلها على عائلتينا بالعدل والقسطاس.

فجأة، وبين طلقات الرشاشات التي أوشكنا الاعتياد عليها، دوى انفجار محطّماً زجاج الغرفة التي كنّا قد التجأنا إليها.

- كانت ستصيبنا. الله أبعدها عنّا. لم تحن ساعتنا بعد، تفاصحت عمتي.

ساد صمت طويل وكلّ منّا يتساءل عن معنى ومدة وقف التنفيذ هذا الذي منحنا إياه الله. وكان أبي أول من خرج عنه هامساً بصوت مرتجف :

- لم نعد نسمع القطط. . . كأنها اشتمت رائحة الخطر. . .

- ترى أين ذهبت؟ صرخت عمتي وهي تلملم قطع الزجاج من فوق السجادة.

أذكر منذ نعومة أظافري عصابة القطط المتوحشة التي اختارت السكن في بيتنا. كم كان عددها؟ عشرون على الأقل. كانت تعيش من بعض ما نعطيها، أو بالأحرى ما نرميه لها، إذ كنّا نخشاها، ومن الكثير مما تسرقه منّا. وعندما كان يموت أحدها من المرض أو الشيخوخة أو من جراء حبّه لقطة محسوبة على الزعيم، كانت العصابة تختار غيره في ليلة مقمرة خلال اجتماع مغلق ينعقد دوماً على السطح ويموء فيه كل مشارك برأيه.

- ترى أين ذهبت؟ كررت عمتي سؤالها.

وبما أنّها كانت تعلم جيداً أنّ فتح نمليّتها لا يصعب عليها، ذهبت لتتأكد من أن كل ما كدسّته احتياطاً للحصار الطويل لم تستولي عليه تلك «اللعينات».

قبل وصولها إلى الفناء الخلفي حيث المطبخ وحجرة الغسيل، سمعت صراخ ودعاء آت من الطرف الآخر للحائط الفاصل؛ نفس الصرخات التي أطلقتها جاراتنا قبيل شهر رمضان الماضي عندما فقدت الطائفة الشيعية رئيسها. أما القطط، فكانت في قمة غبطتها. وفاجأتها عمتي وهي تتمشّى لتُهَضِّم تاركة خلفها ذيول دماء.

«لا بد أن في بطن كل واحد من هؤلاء الأوغاد قطعة كبيرة من فخذ خروفي»، قالت لنفسها.

كما قالت لنفسها أنّه لا يجوز لها أن تتجاهل حزن جاراتها ولا بد لها أن تعرف سببه. أَوَلَم تَنجُ هي لتوها من الموت؟

تسلّقت سلماً مسنوداً إلى الحائط وتمسّكت بأغصان العريشة وسألتهن، دون رؤيتهن، عما حلّ بهن.

- ***يا ربي، يا الله، يا ربي، يا الله*** ![1] علا صراخ الجارات.

- لِمَ هذا الصراخ؟ لِمَ هذا البكاء؟

- ***يا ربي*** ! ابننا الحبيب... حسين... ***يا الله*** ! القذيفة... جسمه تقطّع... ***يا ربي*** ! بالكاد يُعرف.

نزلت عمتي بسرعة من على السلم وانحنت على ذيول الدماء. ***يا ربي*** ! ***يا ربي*** ! لم تمسّ القطط فخذ خروفها. كانت قطعة من جسد حسين المقطّع قد وقعت في الفناء الخلفي. مارة من فوق العريشة... وقد التهمتها.

*

(1) بالعربية في النص.

حال انتهاء حظر التجول، دُفِنَت بقايا المسكين حسين الذي شاء حظه التعيس أن يتواجد على طريق القذيفة. كان نجم الشؤم...

لم تعلم عائلته أبداً بما جرى للقطعة التي كانت تنقص جثته لتصبح جثة كاملة. جثة حقيقية. كجثث القافلة...

وانتظرتُ طويلاً، طويلاً جداً، قبل أن أتعلّم مداعبة قطة من جديد.

حكاية بدو

في شهر أيار من كل عام، يحطّ ثلاثة من البدو الرحال فجراً في بيت جدي مهتدين بنجمة ما. يضمّ أولهم إلى صدره حملاً ممأمئاً ويحمل ثانيهم على ظهره قربة كبيرة من جلد الماعز مليئة ***بالسمنة***[1] ويجر ثالثهم خلفه كيسين ضخمين محشوين بالصوف. وصل المجوس وهداياهم !

كان جدي يستقبلهم بـ«أهلاً وسهلاً في بيتكم» ويسارع بدفع جميع أفراد العائلة حتى أصغر الأحفاد ليصطفّوا ويحملوا سطول الماء لجمالهم الجائمة على طريق بيتنا والراغية لنفاذ صبرها. وبعد أن يتأكد من أن كل واحد من المُصطفين يؤدي مهمته على أحسن وجه، يدعو ضيوفه للجلوس على سجادة وسط الزهور والشمشيرة ويسألهم عن أحوال القبيلة.

فيمسح أكبرهم عينيه بيده وينحّ ويروي بشكل متقطّع ومتردد كل ما عانوه وقافلتهم المتواضعة تحت شمس حارقة قبل أن يعودوا ويروا ***دمشق الشام***[2] ويسلّموا البضائع التي حمّلهم إياها تجار أغنياء لأصحابها دون أن يعرفوا أصلها ومحتواها. ثم يتحدث البدوي عن

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

الواحات التي حدّدت مسارهم وعن الجفاف والجراد... ويضيف أنّ العام المقبل سيأتي *إنشالله*[1] بمزيد من *السمنة* والصوف وربما بحَمَلين بدلاً من واحد.

يبدأ بعد ذلك طقس الخبز. يأخذ جدي رغيفاً يقسمه إلى أربع قطع متساوية يرشّ عليها الملح ويقدم قطعة لكلٌ من زواره. وقبل أن يتناول قطعته، يحمد بالعبرية «*ذلك الذي يُخرج القمح من الأرض*». في لحظة التوحّد هذه التي تفوق كل وصف، يشكر الرجال الأربعة السماء التي جمعتهم دون أن يتبادلوا أية كلمة.

ثم يأتي الطعام، وهو كالعادة سلطة بندورة وفليفلة وخيار مع *نعنع*[2] وزيتون، ومن ثمَّ طبق كبير من البيض المقلي وآخر من المجدرة مع اللبن، وفي النهاية حلويات مشكلة تفتخر بصنعها وعن جدارة (لورا) أصغر وأجمل عماتي.

كعادة البدو في ذلك الزمان، كان ضيوفنا يأكلون باليد. وبعدما يتناولون اللقمة الأخيرة، ينفضون *العباية*[3] ويتجشأون قدر المستطاع تعبيراً عن امتنانهم وشكرهم لمضيفهم على هذه الوليمة.

كان أكبرهم يعود للكلام وبيده فنجان قهوته الساخن ولا يتوقف حتى تتعالى أصوات مؤذني دمشق داعين المؤمنين للصلاة.

عندئذ، يتوضئ البدويون الثلاثة على حافة البِركة ويمدّون سجادات الصلاة التي حضّرناها ووضعناها عند أقدامهم، ويصلّون،

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

(3) بالعربية في النص.

بينما الشيخ اليهودي يرقبهم متأثراً ومستعيداً قول (يهوه) في بداية التكوين : «***ورأى الله أنّ ذلك حسن***».

على غرار الملوك الذين كانوا يقدّمون وليّ عهدهم لرعيتهم، كان أكبرهم يشير إلى أحد أخوَيه كخلف له في العام المقبل إذا ما حالت مشيئة الله دون لقائه بمضيفه ثانيةً.

- سنلتقي، سنلتقي، كان جدي يصيح به.

- ***انشالله*** ، ***انشالله*** ، كان البدوي يجيبه معتلياً ظهر جمله.

*

بلغت الثالثة أو الرابعة عشرة من عمري وأنا لا أكفّ عن التساؤل حول أولئك الضيوف الغريبين. ترى من يكونون ؟ ولماذا يعودون إلينا كل ربيع مع سمنتهم وصوفهم وحَمَلَهم المنذور للذبيحة ؟

- من هي قبيلتهم ؟ سألت جدي ذات يوم.

الحقيقة أنه لم يَعُد يذكر ! وكأنما ليعتذر، أغلق كتابه وروى لي هذه الحكاية الرائعة التي تجيب على كل تساؤلاتي. حكاية بدو، بدو من أبناء تلك القبيلة التي نسي اسمها. حكاية أرويها بدوري لكلّ من يريد أن يصدقني، في حين أرى على شاشة تلفازي صور مروعة ليهود وعرب يتواجهون ويتنازعون ويتذابحون.

*

كان ذلك قبل خمسين عاماً، حوالي عام 1870 أو 1880. كان أبي عائداً من رحلة طويلة وقد سار راكباً في الصحراء طيلة اليوم دون أن يصادف كائناً حياً.

لم يكن قد بقي في مطرته سوى بضع قطرات ماء عندما رأى شيخاً بدوياً يخرج من خيمته ***مدثّراً رأسه بكوفية***[1] ***يعتليها*** عقال[2].

- السلام عليك، قال له أبي.

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، أجابه البدوي. إن كنت عطشاً أقاسمك ما عندي من ماء وأعطي فرسك أيضاً ماء لتشرب. وإن كنت جائعاً، نأكل معاً ما عندي من خبز ولبن[3] وتمر.

كان أبي خائر القوى، فلم يتردد في قبول هذه الدعوة الربّانية. انقضّ على جرة ماء وأفرغها دفعة واحدة، وبعدما روى ظمأه، سأل مضيفه إن لم يكن قطيعه قد عانى كثيراً من الجفاف هذا العام.

- لو أرسل لنا الله الرحمن الرحيم كل أمطار السماء لما كفت اليوم لبَعْثِ جمالنا وماعزنا وخرافنا التي ماتت جوعاً في مَراعٍ خرّبها الجراد. يا عمي[4] البدو متعبون ! تعبوا الترحال من واحة إلى واحة. اليوم هنا، غداً هناك... وقوافلنا تقصر كأيام الشتاء. تعبنا... لكن الله يعيننا.

مدّ أبي يده إلى كيس نقوده المُعلّق برقبته وأخرج نصف القطع الذهبية التي بداخله ووضعها على الحصيرة المغطاة بالرمل. وقال للبدوي :

- ستعيدهم لي بعد الأمطار... عندما تستطيع...

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

(3) بالعربية في النص.

(4) بالعربية في النص.

- لكن ما اسمك؟ وأين أجدك عندما أستطيع أن أعيدهم لك؟

- أنا يهودي أتبع الوصايا التي حملها موسى لشعبه في صحراء غير هذه. اسمي أبو بيخور الكتراني وأقيم في دمشق[1] في نفس حي ملّتي. اسأل عن حارة اليهود. كل الناس تعرفها وتعرفني.

*

وتابع جدي كلامه:

- قد تبدو هذه القصة كأسطورة أو مثلٍ من الأمثال التي نحب سماعها. لكنها قصة واقعية. وأنا أرويها لك كما رواها لي أبي عشيّة وفاته. كان رجلاً ينسى بالسرعة نفسها الأذى الذي أصابه والخير الذي فعله. وهكذا نسي القطع الذهبية التي تركها يوماً على حصيرة البدوي. لكن بعد سنتين أو ثلاثة، يذكر أبي أنه كان صباح خميس وقد أزهرت الليمونة، وصل البدوي إلى بيتنا دون سابق إنذار برفقة ولدين من أولاده مخبئاً تحت *عباءته* حملاً بان رأسه.

*

- إنه أصغر حملان قطيعنا، قال البدوي لدائنه. نعم، قطيعنا... أضاف مؤكداً. فمذ أدنتني القطع الذهبية في موسم الجفاف، عندما كنت بأمسّ الحاجة لها، أصبحت شريشي[2] وهاهي حصتك من السمنة التي استخلصناها من حليب ماعزنا، وحصتك من الصوف الذي أعطانا إياه خرافنا.

كانت حفاوة الاستقبال الذي خصّهم بها أبي تُضاهي فرحته

---

(1) بالعربية في النص.

(2) شريكي كما يلفظها البدو (المؤلف). بالعربية في النص.

بلقاء ذلك الذي ربما أنقذ حياته. وقدّم «لإخوانه» الثلاثة «وجبة عيد» في هذه الدار نفسها أمام هذه البركة نفسها وأهداهم كوفيّات فاخرة طُرِّزت في مشاغله ورفض أول قطعة ذهبية أراد مُدينه أن يسددها له.

- بما أنك تعتبرني شريش، فما لي لك، وما لنا ملك للذي أعطانا إياه. ليحمِ الله قبيلتك وماشيتك وجِمالك !

❋

- منذ ذلك الوقت، وفي كل ربيع، يحمل إلينا ثلاثة من قبيلة «الشريك» أصغر حملان قطيعهم وحصتنا من *السمنة* والصوف. وها قد مضى خمسون عاماً والأبناء يتابعون ما بدأه الآباء ويتناقلون شفوياً اسم وعنوان آل (الكتراني). وأعتقد أنهم سيستمرون حتى أبد الآبدين بتسديد دَيْن ما هو وما كان يوماً بدَيْن. وأضاف جدي قبل أن يغرق مجدداً في قراءة المزامير : وبعد، فأنا أجهل كل شيء عن هؤلاء *الشركاء* المخلصين وعن الواحات التي يرعون فيها قطيعهم، ولن أجرؤ أبداً على الاعتراف لهم بأني لم أعد أذكر اسم قبيلتهم. لكن كلما رأيتهم يحطون الرحال هنا حاملين حَمَلِهم شعرت وكأنّ الملك (سليمان) بذاته حظّني بزيارته.

❋

وكانت الحرب والحروب والثورات. وغادرت عائلتي دمشق تاركة خلفها قبوراً خَرِبَة وخُطى البدو الخالدة على رخام بيتنا.

❋

إذا صدق علماء الإناسة، فإنّ عشرات القارات والحضارات قد ابتلعتها أمواج البحر أو رمال الصحراء ولم يعد لها من أثر. حضارة *شريش* جد جدي غرقت من جهتها منذ بضع عشرات السنين في بئر

نفط كبير. لكننا نعرف على الأقل أنها قبل أن تختفي، كان لها وجه ذاك الأعرابي الذي قال يوماً لفارس متعب : «إن كنت عطشاً، أعطيك ماء لتشرب ؛ إن كنت جائعاً، نتقاسم رغيفي». كما نعرف أن الأعرابي كان مسلماً والفارس يهودياً.

ليالي الصيف

في ليالي الصيف، هرباً من كتائب البق المُعشّشة في فرشاتهم والتي تمنعهم من النوم، كان «الناس البؤساء»، حسب تعبير أبونا (فيكتور هوغو)، يشمّون الهواء مُعْتَلين شواهد رُخامية تركها النحّات أمام باب ورشته الصغيرة.

كنّا نسمع أحياناً البنات الحالمات بالذهاب للعيش «هناك»، وراء المحيط، تغني أغنية الحنين التي دندنتها أمهاتها وجداتها يوم كانت في عمرها : «*بلدي يا بلدي*[1]*، يا محلا ريحة بلدي. . .*».

بين مقطع وآخر، كانت تستوقف جاراً ماراً وتطلب منه أن يقرأ لها تحت ضوء القمر الكلمات المحفورة على الرُخام. وكان الجار يجيب :

- يا بنات ! كل الشواهد تروي نفس القصة. . .

- وماذا تقول ؟

- تقول أنّ من حُفِرت لأجلهم كانوا معنا بالأمس وسنكون معهم في الغد. . .

*

(1) بالعربية في النص.

كان ميسورو الحارة «يجهلون» عند (أبو سالم) الشربتجي.

كالبنّاء الشاعر (إسماعيل)، كان (أبو سالم) «غريباً» تبنيناه وأصبح مع مرور الوقت واحداً منّا. كان يقدم لنا، بالدَيْن، شراباً وردياً معطراً ابتكره بنفسه واسماه «خدود العذارى». وكان يطلب منّا أن نُسجّل بأنفسنا عدد الكؤوس التي شربناها على لوح معلق تحت لافتة تنبّه «الزبائن الكرام» إلى أنّ الدَيْن ممنوع.

كنت أقول له كلما «ريّشتُ» :

- *يا أبو سالم*، دعني أحاسبك بالخمسة عشر *خد* والعشرين *عرقسوس*. . .

- *والقازوزات* التي شربها أخوك. . . لكن لا داعِ للعجلة !

- كم قازوزة ؟

- من أين لي أن أعرف ؟ فهو يشرب ثلاثة على الأقل يومياً ويطلب مني أن أسجلها على حسابك. لكن بما أنيّ أنسى كل شيء، حتى اسم أبي أحياناً، فأنا لا أذكر إن كان يَدِين لي بثلاثين أم بستين أم بمائة قازوزة. . .

في بعض الأحيان، كنت أقتل الملل بالجلوس أمام دكانه قبل ازدحامه. فيأخذ أحد كراسيه القليلة التي ما تزال واقفة على أرجلها الأربعة ويتربّع عليه قبالتي ليصغي إليّ موجزاً «أخبار العالم».

- عينك على أخيك الصغير، قال لي ذات مساء وهو يلف سيكارة، كأنه مغروم. لكنه لم يزل صغيراً على الحب وهو في الرابعة عشر، أليس كذلك ؟. . . هذه السيكارة لا تريد أن تلتف. . . مستحيل لفها من أول مرة.

لفّ غيرها وناولني علبة التبغ.

- ولِمَ لا يعشق؟ أضاف مصححاً. أنا في مثل سنه كنت متزوجاً. ومن بعدها تزوجت مرتين. . .

- وأنت تنتظر حتماً أن تجمّع بعض المال لتمنح نفسك عروساً جديدة. . .

- صار الزواج مكلفاً في هذه الأيام، والرابعة ليست سهلة المنال. . . يا ربي ! لو كنت يهودياً لتزوجت عشر مرات بالسنة. عندكم البنت هي التي تقدّم المال لمن أختارها. وأنا أعرف أناساً ما كانوا ليستطيعون شراء طربوش جديد لليلة عرسهم بدون ما تسمونه *دوتا*. آه ! لو كنت يهودياً ! لكنّي مسلم والحمد لله. . .

تركني لحظة ثم عاد بإبريق عرقسوس مثلّج.

- هذا على حسابي. الليلة أنا هارون الرشيد. . .

- أتظن أني سأشرب كل هذا ؟

- اشرب على الأقل نصفه وأنا أُنهي النصف الآخر. مثل الأخوة. . .

كان الرصيف ما يزال مقفراً باستثناء طنبرجي محمّل براميل مازوت وقف ليرتوي مُفرغاً صفاً من أباريق الماء البارد واحداً تلو الآخر.

ناداه (أبو سالم) :

- إذا أردت أن تُشرب أحصنتك فنبعة (البغال) في نهاية ثاني شارع على يمينك، وراء خرابة المنشرة القديمة.

- أحصنتي تشرب عندما أريد وأينما أريد، أجاب الطنبرجي.

ودون أن يشكر الشربتجي على أباريقه المجانية، اعتلى مقعده وصَفَقَ بسوطه.

تبرّم (أبو سالم) وهو يرقبه مبتعداً :

- لسانه طويل، لكنه مسكين. لو تعرف كم يربح بعد أربع عشرة ساعة عمل يومياً . . . لا نستطيع أن نطلب من الناس أن تتصرف كالبني آدمين عندما نعاملها كالبهائم. . .

- على فكرة. . .

أفرغ إبريق العرقسوس أو ما تبقى منه وسحب ثلاثة أنفاس من سيكارة جديدة وانتظر تتمّتي لـ«على فكرة».

- لا تؤاخذني على فضولي، لكني أريد أن أسألك. . .

- نعم ؟

- سأتدخّل فيما لا يعنيني. . .

مذ أقام (أبو سالم) عندنا، لم يجرؤ أحد على سؤاله السؤال الذي كنت أستعد لطرحه :

- نعم ؟ ماذا تنتظر لتتدخّل فيما لا يعنيك ؟

- أريد أن أعرف ما تفعله خلال الأشهر الستة التي لا تبيع فيها التمر الهندي والعرقسوس وخدود العذارى. كل سنة تفتح دكانك في بداية موسم المشمش وتغلقه بعد العنب لتعود إلينا مع بداية المشمش. . . لكن بين آخر العنب وأول المشمش. . .

- اسمعني جيداً ***يا أخي*** : لقد بحثت طويلاً عن الطريق الذي كتبه لي الله وقد أطلقني بين الذئاب من أمثالي. وأعتقد أنّي وجدته.

فأنا أشقى في العمل ستة أشهر دون توقف وفي الستة أشهر الباقية أعيش على كيفي من ثمار عملي.

- دون عمل شيء؟

- أنت الذي تقرأ في كل الكتب، هل تستطيع أن تذكر لي آية من آيات القرآن أو التوراة أوالـ... ما اسم كتاب المسيحيين؟

- الإنجيل.

- ... أو الإنجيل تُحرِّم العيش اليوم بعمل الأمس؟ أبي الذي باع العرقسوس خلال أكثر من نصف قرن، كان يغيّر مهنته شتاءً ويقدم الحُمّص في نفس الدكان لأصدقاء الصيف. والآن، صيفاً شتاءً، لم يعد يقدم لهم سوى الحُمّص... في الثمانية والسبعين من عمره! وسيموت كما عاش دوماً: كالعبد. أما أنا، فلا!

كان زبائن (أبو سالم) قد احتلّوا المكان الأقل إضاءة والأكثر ارتياداً من الرصيف.

- واحد خدود وواحد تمر هندي!...

كانت هذه أولى طلبيات المساء. نهض وأرجع كرسيه إلى جانب الحائط ثم انحنى عليّ وهمس في أذني:

- الليلة ليلة صيف حلوة. استمتع بها قبل أن تمضي...

*

بعد أربعين عاماً على جلستي هذه مع (أبو سالم)، كنت وحدي ذات صباح في بار فندق (باريس) في مدينة (مونت كارلو) حيث لا يأتي الزبائن إلا في ساعة متأخرة من النهار. أخذ نادل البار وهو

واحد من أواخر شيوخ المهنة الذين يؤتَمَنون على كل شيء، يروي لي كيف ابتكر لـ«مدام كوليت»[1] كوكتيلاً من عصير البرتقال والكريفون والفريز والتوت «مع إصبع من عصير الجزر».

- كان هذا يعطي المزيج لون... لوناً لا أدري كيف أصفه... وقد أحبّته (مدام كوليت) كثيراً حتى أنها كانت تطلب منه كأسين على الفطور.

- وماذا سمّيت هذا الكوكتيل؟

- «كوليت» طبعاً! فلأجلها اخترعته ولم أكن أقدمه أصلاً لغيرها.

- «كوليت» ليس اسماً فريداً... أنا كنت لأجد له اسماً آخر...

- اسم آخر؟

- نعم... شيء مثل... خدود العذارى...

- يا لها من فكرة! هل تصدق أنّي أنا أيضاً عندما تذوقت هذا المزيج أول مرة فكرت باسم آخر. ولو طاوعت نفسي لكنت سميّته خدود كلودين.

صفّق بيديه، فحضر صبي وأفرغ منفضتي.

- شيء غريب! أتساءل كيف خطرت لك فكرة إعطاء اسم... منعش وشاعري كهذا إلى كوكتيلي... إلّا إذا...

- لا داعٍ للتساؤل، قلت له وأنا أرتدي معطفي. كنتُ أتردّد

---

(1) كوليت (1873- 1954) أديبة فرنسية، من رواياتها «كلودين».

سابقاً على. . . بار آخر يقدّم أيضاً مزيجاً فريداً من عصير الفواكه. كان ذلك منذ زمن بعيد. . . وبعيداً جداً من هنا. . . ومازلت أذكر اسم نادل البار الذي ابتكر هذا الكوكتيل. كان اسمه (أبو سالم).

- لا أعرفه. . .

اقترب من الواجهة المطلّة على البحر وتأمل الأفق ثم انحنى عليّ كأنما ليَسِّر لي بإحدى آخر كلمات (مدام كوليت) وهمس في أذني :

- يوم جميل، سيدي. استمتع به قبل أن يمضي.

الرحيل

عندما نحب يجب أن نرحل
(بليز ساندرارس)

في نهاية ذلك الخريف، حين كنت أتهيئ لأكبر مقامرة راهناً كل شيء بنتائج امتحان، كنت وحارتي نعيش في غرام وهيام كعاشقين ستفرّقهما الحياة بعد لقاء قصير. وبينما كنت هائماً على وجهي في أزقّة مغطاة بوحل أشتية وأشتية، عادت إليّ أغنية قديمة كانت تغنيها لي معلمتي ذات العينين الزرقاوين، في بيتها، بين درسين خاصين (جداً) :

مادمنا سعداء معاً

أيجوز لنا أبداً ؟ نعم

أيجوز لنا أبداً ؟ لا

لا ، لا يجوز لنا أبداً أن نفترق. . .

طرّة : سأرحل. نقش : سأمضي حياتي بين جدران حارتي في مدينة كنتُ مرتبطاً بها بكلّ أحاسيسي كما الكرّام بكرمته. . . كانت طرّة. وهجرت حارتي ومدينتي.

لَكَم أحنّ إلى دمشق تلك الأيام ! لو قلت لكم لماذا لبَدَوتُ

كمرشدٍ خرفان لم يفتح دليل (بيديكير)[1] السياحي بحياته. فبدل إلزامكم سماع الديباجة التقليدية عن الجامع الأموي وهو كما نعرف جميعاً «من روائع الفن الإسلامي» أو قصر العظم الشهير الذي «لا بد من زيارته»، قد أصف لكم غروب شمس أيار على حقل فول ؛ قد أحدّثكم عن *سوق الطويل*[2]، وهو اسم على مسمّى، يصبّ فيه العربجية سخطهم على الطنبرجية المغرّزين بالوحل والمُهدِدين بسياطهم المكاري الذين يشتمون الجمّالين الذين لا يجدون أمامهم سوى حمار قافلتهم ليتهجّمون عليه ؛ قد أُريكم صور شربتجية جوّالة يطربون على أنغام طاساتهم النحاسية ؛ قد أُريكم أيضاً في نفس الألبوم لقطة لخمسة بدويين زاحفين تحت تراموای واقفٍ بحثاً عن مخبئ الأحصنة الخفية التي تجرّه ؛ قد أروي لكم جولة شحّاذين عميان يعطف عليهم الجميع لأنّهم شحاذون وعميان، أو جولة درويش لا يعمل إلا نصف ساعة فقط يومياً، الوقت الكافي ليبيع مائة قرص من الصفيحة بدبس الرمّان وليعدّ غلّته ؛ ولربما حدّثتكم عن بعض أصدقائي ممن «مُلْتُ عليهم ومالوا عليّ. . .»

لكن لِمَن أُقلّب جمر تلك الذكريات طالما دمشقي لم تعد في دمشق وحارتي اندثرت إلى الأبد؟ حارتي العتيقة حيث يجد واحدنا نفسه حَكَماً وسط نزاع لا يعرف شيئاً عنه أو عن المعنيين به ؛ وحيث يُمسك بواحدنا في الطريق ويُسحَب برضاه أو رغماً عنه إلى

---

(1) كارل بيديكير (1801-1859) مؤلف ألماني نشر سلسلة أدلة سياحية عُرِفَت باسمه.

(2) بالعربية في النص.

أقرب كنيس لإكمال *منيان*؛ وحيث يُثار الجدل حول مصير الإنسانية على كل مفرق وناصية؛ وحيث يُستَدعى واحدنا ليحلَّ حالاً محل قاضٍ غاب عن المحكمة الحاخامية...

كيف لي أن أنسى ذلك العالم الصغير حيث يبيع السمّان كل شيء بالدَيْن للطفرانين، لأنه كُتِب أنّ «أكثر ما يُرضي الله ليس فتح دفتر لتسجيل ما يدينه لكم الآخرون وإنما وفاؤه بالصلوات والأعمال الحسنة بما تدينونه له»؛ حيث كل شيء ممكن وكل الناس على حق، وحيث يُقال دوماً، وعلى السواء، للأغنياء والفقراء، للشبعى والجوعى، «صباح الخير» أو «مساء النور»؟

---

(1) المنيان هو النِصَاب المؤلف من عشرة أشخاص، الضروري لإقامة الصلاة في الكنيس (المؤلف).

عندما ترى الملك...

كانت النتائج معلّقة على باب قاعة الامتحانات : من بين كل المتقدِّمين كنّا ستة ناجحين فقط. وأخيرا حصلت على منحة للدراسة. في فرنسة ! في باريس ! كنت أقرأ وأُعيد قراءة اسمي على الورقة التي تحمل ترويسة وزارة المعارف. لم أكن أحلم. سألتحق قريباً بالسوربون، «ملتقى لغات العالم»، وسأرى الشانزيليزيه، «أجمل جادّات العالم»، والبانتيون حيثِ يرقد «عظماء الأمة» ممن «يَدِين لهم الوطن»، وسأركب ذلك القطار الشهير الذي يُقال أنّه يسير تحت الأرض (لكن أيُعقل هذا ؟).

في اليوم التالي، كبطل مكلّل بالغار أضاف نصراً جديداً إلى سلسلة انتصاراته، اضطررت للقيام بجولة في الحارة وللعب دور العارف بكل شيء.

- يُقال أنّك ستمثُل قبل سفرك أمام الملك.

- الملك ؟ لكن ليس عندنا ملك.

- إذاً السلطان هو الذي سيستقبلك في السراي.

- ولا عندنا سلطان.

- هناك حتماً من يأمر القضاة والشرطة بإعدام اللصوص وقطّاع الطرق والمجرمين. وهذا لا يمكن إلا لملك أو سلطان. . .

- لكن !. . .

- المهم، سيستقبلك هذا الـ. . . الملك، فتقول له الآتي : يا مليكنا ! إنّ الظلم يسود مملكتكم وآن الأوان لإعادة الفقراء إلى مقام البشر ولجم الأغنياء الذين يستغلّونهم. . .

في كل محطة من جولتي كبطل مظفّر، كانوا يتحلّقون حولي ويؤكدون لي بأنّي سأصبح في يوم من الأيام عالماً كبيراً وربما أكبر من بن ميمون[1] الكبير. كان معظم هؤلاء المعجبين من «المعتّرين» الذين يتدبّرون أمورهم بالتحايل والتشاطر والتذلل ويعيشون كل يوم بيومه حامدين الله دائماً وأبداً على عطائه. . . للآخرين.

- وقبل أن ترجع إلى الوراء مغادراً البلاط الملكي، عليك أن تشير للسلطان إلى السماء. . . أضاف مستشار آخر.

- لم يعد هناك من سلطان.

- إذاً تشير للملك إلى السماء لتذكّره باحترام من خلال هذه الإشارة بأنّ ملك الملوك يحكم من هناك وأنه ليس سوى خادمه الفقير.

- فكرة ممتازة. سأتذكّرها عندما أرجع إلى الوراء مغادراً البلاط الملكي.

- قد تُتاح لك أيضاً فرصة لقاء ملك الفرنساويين. . .

- فرنسة أيضاً ما عاد لها ملك ؛ أصبحت جمهورية.

---

(1) موسى بن ميمون فيلسوف وعالم دين وطبيب يهودي شهير، ولد في قرطبة عام 1135 وتوفي في القاهرة عام 1204 (المؤلف).

- ما هذه الـ. . .

- إنه نظام بلا ملك.

- ومن يحكم إذاً هذا البلد الكبير؟

- الشعب.

- وماذا يعني الشعب بالضبط؟

- يعني كل الناس. . .

- إذاً، اكتب لنا لتخبرنا كيف يمكن لشعب بكامله أن يضع مؤخرته على عرش واحد. . .

كان بين الجمع المحيط بي ثلاثة شيوخ أشدّاء اقتربوا بدافع الفضول ليروا عن كثب ذلك الذي سيصبح *حاخاماً*. كانوا يصغون إلينا عابسين مشغولي البال دون أن يتفوّهوا بكلمة. فهم أدرى بما يعنيه السلطان: العصا والسوط، السوط والعصا. كان لدى الآخرين الذين لم يعرفوا بطش الأتراك صورة مغايرة. كانوا يرون كل الملوك والسلاطين على صورة الملك (سليمان) الذي كان يتكلم بالأناشيد ويشرِّع بالحِكَم.

أقسمت بشوارب هؤلاء الحالمين الطيبين وبلحى الملتحين منهم أن أتوجه حال وصولي إلى *باريز* إلى أعلى سلطات الجمهورية للسؤال عن نوع الخشب الذي صُنِع منه العرش الذي يجلس عليه جلالته الشعب.

«الله معك، الله معك. . .»

ظلّوا يغدقون عليّ دعاءهم حتى بعدما تواريت خلف منعطف الطريق.

لكنّي كنت قد أصبحت على الضفة الأخرى.

علي وصيصانه

كان (علي) شيعيّاً. وقد اختار العيش في قلب حارتنا، بين أكفر *الكافرين*[1]. غريب، أليس كذلك؟

كان يقطن في جُحْرٍ تغطي حيطانه وأرضه وسقفه في كل الفصول طبقة طحالب معفنة، جُحْر ما كان ليجوز حَبْسَ أعتى المجرمين فيه. كان هذا مسكنه وملجأه ودكانه. دكان لا يبيع فيه شيئاً. لأنّ ما عنده شيئاً يبيعه.

كان بعض الذين يذكرون قدومه إلى عندنا عشية الحرب العالمية الأولى يزعمون أنّهم باغتوه، في العشرينيات، وهو يعرض على كرتونة أكلة أشبه *بالحلاوة*[2] أو ربما بقمر الدين. وعندما كنّا نسألهم إن كانت هذه الأكلة أشبه بالحلاوة أم بقمر الدين، كانوا يجيبون أنّهم ما كانوا يستطيعون أن يحزروا عن بُعد ما تخفيه أسراب الذباب... ولن يقولوا المزيد. «حذارِ من التدخّل في شؤون شيعي!...»

أكان ثمة ما يُخشى من عجوز بساق واحدة يمضي نهاراته جالساً أمام دكانه، لا يطلب شيئاً من أحد، ولا يملك سلاحاً سوى

---

(1) بالعربية في النص.

(2) بالعربية في النص.

عُكازين متفلّقين ومسمرين وملصقين مرة واثنتين ومرقّعين، ويرد دوماً بلطف على «صباح الخير» بـ«صباح النور»؟

لا يهم! شيعي آتٍ من حيث لا ندري، على رأس دكان لا أساس له، وفوق ذلك بساقٍ واحدة، ولا أحد يعرف كيف فقد ساقه الأخرى... هناك حتماً إنّ في الموضوع.

لمعرفة الخبر اليقين، اقترح عليه جار جسور في أحد الأيام وبعد طول مواربة أن يأخذ شريكاً، ولِمَ لا يهودياً؟، يكون على قدر من الحذاقة لبيع شيء ما من وقت لآخر. هكذا يتقاسمان الأرباح وينتفع كلاهما.

هزّ (علي) رأسه رافضاً وأمسك بجدعته المغطاة بخرق واستدار على مقعده ليُفهِم الضيف المزعج بأنه رآه بما فيه الكفاية.

كان هذا الرجل حقاً غامضاً. لذلك كان من الأفضل تفاديه، خاصة وأنّه يُبدي ولعاً غريباً بـ... احزروا بماذا؟... بالصيصان! وليس بأية صيصان. الصيصان التي كان يحبها حباً جمّاً هي تلك التي تبيضها له خمس أو ست دجاجات يُرهِبها ديك عجوز أبحّ ومخرّف كان يصيح ساعة صلاة الظهر أو في منتصف الليل إذ يحسب أن ضوء مصباح عربة متأرجح هو طلوع الشمس.

كانت صيصان (علي) «صغاره»، رفاقه، مؤتمني أسراره، طغاته. لم يكن قلبه يطاوعه أبداً على مفارقتها «من أجل المال». لكن ولِمَ الإنكار؟ كان يقبل أحياناً، للضرورة أحكام، باستبدال اثنين أو ثلاثة منها بحفنة رز أو *برغل*[1] أو عدس. حتى أنه تنازل مرة، دفعة

---

(1) بالعربية في النص.

واحدة، عن دزينة منها مقابل الحصول على عُكازين أقل تصدعاً من عكازيه. كانت كل مقايضة تُعرض عليه بمثابة إنزال عقوبة الفَسْخ فيه.

كان يقول لمن يغويه :

- ارجع بعد قليل، ما هكذا نفارق صوصاً رأيناه يفقس بيضته. . .

وكان (علي) ينتهي غالباً إلى الاستسلام وقلبه مدمّى. لم يكن لديه الخيار.

في الفجر، كان يطلع من عرينه وينتظر الأذان ليُفلّت «صغاره» في الشارع. هاهم أخيراً أحرار ! لكن الويل للخارجين الذين يذهبون بعيداً لنقر روث جمل أو فتات خبز في مجاري الماء.

- ***تعا***[1]***!*** . . . هكذا كان (علي) يناديهم ليعيدهم إلى جواره. وكانت كل أوامره تتلخص بهذه اللفظة. كان يستخدمها لتأنيب صيصانه ودعوتهم للطعام وقرع جرس نهاية الفرصة وإعلان حظر التجول .***تعا ! . . . تعا ! . . . تعا ! . . .***

❋

كانت علاقتي مع (علي) متميزة، كما يُقال في اللغة الديبلوماسية. وعندما كانت جدعته لا تؤلمه كثيراً، كان يدعوني للجلوس على كيس خيش ويسألني إن كان العالم بخير. فأطمئنه قدر الإمكان. العالم ماشي حاله. . .

- أتظن أنّ حاله أحسن عند ***الفرنساوية*** ؟ قال لي يوماً وهو يربّت على صوص صغير أعرج.

---

(1) بالعربية في النص.

كانت حياة كل واحد في الحارة تخصّ الجميع. وقد علم (علي) أني سأسافر قريباً «لعند *الفرنساوية*، لآخر الدنيا».

- ستغادرنا إذاً...

- نعم يا علي... إن شاء الله... لذلك جئت اليوم لـ...

قال وكأنه لم يسمعني:

- خذ، ارم لهم هذه الحبوب... آخر حبوب اليوم. *تعا!*... *تعا!*... *تعا!*... ثلاثة منهم لم ينقروا اليوم شيئاً... ربما زعلانين... من يدري ماذا يدور في رأس صوص... ولماذا ستُبعِّد هكذا؟

- للدراسة...

- أنا أيضاً عندما كنت بساقيّن كنت أحلم بالرحيل... إلى بلاد العصافير. يُقال أنّ لدى *الفرنساوية* حدائق شاسعة تعيش فيها آلاف وآلاف العصافير محبوسة وراء قضبان أقفاصها. لو كنت سلطان تلك البلاد لأعَدْتُ لهؤلاء السجناء حريتهم لأنّ الله أعطاهم أجنحة ليطيروا بين السماء والأرض وليس في أقفاص، حتى وإن كانت ذهبية...

كان (علي) يحلم. كان يرى نفسه على عرش سلطان آمراً أتباعه بفتح كل أقفاص المملكة.

- يقولون أنّي مجنون. أعرف! أعرف! في هذه الحارة لا أحد يفلت من رقابة جيرانه. منذ أكثر من أربعين عاماً وهم يراقبوني ويترصدوني. أنا الذي ما عنده شيء يبيعه... ويريدون أن يعرفوا من الذي علّمني الكلام مع الصيصان... *تعا!*... *تعا!*... *تعا!*...

دلّني بإصبعه على ثلاثة مضربين عن الطعام:

- لم أتمكّن من مراضاتهم. كان بإمكاني أن تخلّص منهم صباح اليوم باستبدالهم ببعض الكوسا والباذنجان. لكنّهم بالكاد يقفون على أرجلهم.

اقترب أحدهم بحذر من الكيس حيث كنت متربعاً. مددت له فتفوتة خبز لتطبيعه.

فقال لي علي :

- هذا أصغر واحد من الفقسة الأخيرة. لا تحاول أن تمسكه، فهو يدرك بالغريزة أنّ يد الإنسان ثقيلة جداً. . .

نهضتُ لأرجع إلى البيت.

- تصبح على خير يا علي.

- لا ! لا !. . . قال معترضاً. مازال عندي ما أقوله لك. . . أريد أن أقدم لك. . . أترى الأبيض الكبير الذي يهاجم أشدّ الثلاثة زعلاً ؟ هوذا الذي أريد أن أقدمه لك بمناسبة رحيلك. لا تخزِني. . . ***تعا !. . . تعا !. . . تعا !***. . . وماذا سيعلّمونك هناك ؟

- تحكيم عقلي وربما تحسين عيشي. . .

- إذاً أرجو أن يكون بإمكانك عند عودتك أن تشرح لي لماذا يوجد صيصان حزينة دونما سبب وأخرى سارحة ومارحة. . . ***تعا !. . . تعا !***. . . عبثاً. هؤلاء الثلاثة لا يرغبون بسماع صياح الديك ثانية.

رفع جدعته وأمسك بأحد عُكازيه. ولدى مناولته العُكاز الآخر، كأني سمعته يتمتم : «ولا أنا».

كصيصانه الثلاثة الخائرة، لم يعد (علي) يرغب بسماع صياح الديك ثانية.

إسكافي الحفيانين

«أنا إسكافي الحفيانين»، اعتاد (عزّور) أن يقول لي وهو يمصّ أحد المسامير الصدئة التي يُبقيها احتياطاً في فمه الذي ذهبت أسنانه.

مازلت أذكر دكانه بحيطانه التبنية المدعّمة بأعمدة نخرها السوس. كان أشبه بمغارة لم يترك فيها الأربعون حرامي لـ(علي بابا) سوى كوم أخفاف وبوابيج ونعال وصنادل طالما مشت. . . ومن هذه الأحذية المثقوبة والمتآكلة والمهترئة، كان (عزّور) يجتزأ قطع غيار يُرقّع بها بطلوع الروح أحذية أخرى أشد منها إهتراءً.

لم يمسّ موساه قطعة جلد جديد أبداً.

- لِمَن أشتغل بالجلد الجديد؟ فهو يُكَلِّف. . .

وبما أنّه لم يكن يعرف سعر «الجديد»، فإنّ تقديراته كانت تبقى دوماً تقريبية.

- يُكَلِّف. . . مصاري كثير. . .

كلما رآني أمام دكانه، كان يدعوني للجلوس ويرجوني أن أتلو عليه بصوت عالٍ بعض آيات نشيد الأناشيد.

- يا سلام! يا سلام!. . . كان يهتف في ختام تلك الاستراحات القصيرة من تركيب النعال التي يمنحها لنفسه. وكي يشكرني على إعطائه هذه الفرصة «للتحليق إلى ***سالومة***»، كان يقدّم

لي كمشة قضامة، غالباً معفنة، ويوصيني قبل أن أقضمها أن أحمد الله على نعمته هذه. فأحمد الله على نعمته ويرد (عزّور) بآمين ويتابع عمله.

*

لم نكن من نفس المقام، حسب قول الخواجات، ولا حتى من نفس العمر. فهو يكبرني بنصف قرن على الأقل. وقد شاءت الأقدار أن أملك أنا كل شيء وألا يملك هو شيئاً. فمقارنة بمسكنه الحقير حيث يعود بعد صلاة المساء ليلقى زوجته وأولاده وأحفاده، كان بيتي بأرض دياره وبركة مائه أشبه بقصر مهراجا.

- ليس الغِنى والرخاء سوى سلفة يمنحها الله لمن يختارهم. إذا لم يستفيدوا منها لعمل الخير، فأنا لا أتمنى أن أكون مكانهم يوم يلقون ربهم، اعتاد أن يقول.

لم يكن (عزّور) يجيد الكتابة أو الحساب. لكنّه تعلّم التمتمة بصلوات ومزامير وحِكم دينية وحتى، والله أعلم لماذا، بمقتطفات من نبوءات النبي اشعيا. وعندما كنت أسأله إن كان يفهم معنى الصلوات أو المزامير، كان يهز كتفيه ويجيبني مشيراً بإصبعه إلى الرف الذي يتصدره كتابه المقدس :

- طبعاً لا أفهم كل ما فيه. قلت لك ألف مرة أني لست سوى إسكافي مسكين. . . لكني متأكد أن الله يفهمني. . .

كان دكانه على طريق مدرستي وكنت أتذرع بأية حجة لأقف عنده وأسمع منه قصة الطفل الذي كاد يموت بضربة سكين لأنه طلع على رصيف حُرِّم على اليهود بأمر من السلطان.

- لو لم يوقف الله، تبارك اسمه، يد المتطرف رافع السكين

كما أوقف يد (إبراهيم) قبل أن يُقدّم الأُضحية، لما كنت الآن أمامك أدق هذا النعل.

كان في «صندوق أحلام» (عزّور) قصصاً لا تقل واقعية عن قصة الخروج من مصر، قصصاً سعيدة كقصة الإسكافي الأسعد منه حظاً الذي وجد يوماً ثلاث ماسات «من أفحل ما يكون» في قعر بابوج.

- أنت أيضاً ستجد ماساتك في يوم من الأيام. ستجدها هنا وهناك، كان يقول مشيراً إلى رأسه ومن ثمَّ إلى قلبه، شرط أن تضع علمك في خدمة الله والناس. لأنَّ أي عِلم لا يساهم في تخفيف آلام البشر لا يفيد، كما لا تفيد كومة جواهر مطمورة في قعر جرة.

لكن يوم وصله خبر قبولي في مدرسة (الآباء العازريين)، كاد (عزّور) أن يبتلع مساميره. وكأني كفرت بديني وأبرمت عقداً مع الشيطان.

- أنت عند الـ. . .! الـ. . .! أُفضّل ألّا أسمّيهم. أنت عند هؤلاء الغربان الملاعين الذين يجعلونك تؤمن بمعجزات لم تحصل أبداً ويلبسونك ثوب الكفر والإلحاد! ماذا تأمل أن تتعلم لدى هؤلاء الدجالين أكثر مما تعلّمت؟ لم تمضِ سنة على منحك ميدالية المعرفة وشهادة تثبت، حسبما سمعت، أنك ختمت تعليمك[1].

- إن تعليم هؤلاء الـ. . . الغربان يؤهلني للحصول على شهادة أكبر من تلك التي حصلت عليها. ثم إن العالم كله يعرف أنّ يسوع كان، مثلي ومثلك. . .

---

(1) شهادة السرتفيكا الاعدادية (المؤلف).

- استغفر الله ! صرخ رافعاً موساه في وجهي. لا تلفظ هذا الاسم أمامي أبداً. اسم (ماشيحا)[1] المزعوم الذي يُفترض أنّه بيننا منذ ألفي سنة... والاختصاصيون بتحريف أكثر النصوص قدسية يقنعون المهابيل من أمثالك...

- *يا عزّور*، أنا لست مغفلاً. اطمئن فأحد في المدرسة لن يحاول أن يثبت لي أن المسيح...

- اسكت ! اسكت ! أقول لك وإلّا فلن تدوس هذا المكان ثانية. قال مسيح قال ! يا أجدب، لو أنَّ المسيح الحقيقي بيننا، هل كان ليسمح بأن أكدح أربع عشرة ساعة يومياً في هذه الزريبة التي لا يرضى كلب أن يسكنها ؟ لو أنَّ المسيح الحقيقي بيننا، هل كان ليرضى بأن أمضي حياتي في ترقيع صرامي عتيقة ببوابيج عتيقة مكتفياً بأكل خبز يابس وبصل وخيار وزيتون ؟ لو أنَّ المسيح الحقيقي بيننا، هل كانت كل هذه الأطفال لتموت جوعاً ؟ لو أنَّ المسيح الحقيقي بيننا، هل كان الأبرياء ليُقتَلون في بلاد يحكمها حماة غربانك وذنبهم الوحيد أنهم لا يؤمنون أو لا يستطيعون أن يؤمنوا بمسيحهم المزيف ؟ اذهب !... اذهب !... ولا تعد لعندي قبل شهر أو شهرين... وحتى ذلك الحين، قد يشرح لك أساتذتك الجدد سبب اضطهاد وقتل ملايين اليهود بحجة تعاليم هذا الـ... ذاك اليهودي... الله معك.

بعد مضي أسبوع على هذه الفورة، عدت أزور (عزّور) وكأن شيئاً لم يكن. ولم نعاود الكلام لا عن غرباني ولا عن مسيحهم.

---

(1) المسيح في التوراة.

ثم جاء ذلك اليوم الذي توقفت فيه للمرة الأخيرة أمام دكانه تحت وابل من المطر.

*

قال لي عزّور وهو يعارك نعلاً عنيداً للغاية :

- ادخل، ادخل. أخلِ هذا الكرسي واجلس. الصرامي في طرف والبوابيج في طرف. لأني أضيع إذا كوّمت الصرامي والبوابيج خلط ملط... ضع ورقة الجريدة هذه على الطربيزة كي لا يتسخ بنطالك الجميل... والآن دعني أنهي هذا النعل. إنه لـ(داوده) الحدّار الذي سيمضي في الفجر... مثلك...

همس (عزّور) الكلمة الأخيرة بصوت حزين. ولو لم أكن أصغي جيداً لما كنت ربما سمعتها.

كنت مغادراً فعلاً في اليوم التالي ولم أكن أدري كيف وبأية طريقة سأخبره. لقد كبرنا عشر سنوات مذ دخلت مغارته للمرة الأولى. لكن لم يعد لـ(عزّور) من عمر. فقد أنهكه الزمن وهدّه وأضناه. وبات عليه أن يتلمّس مراراً قبل أن يتمكن من القبض على الشاكوش أو المقص أو الموسى. ما عادت أصابعه المتشققة المتفلقة تطيعه.

- مثلك، ردد (عزّور) دون أن يرفع رأسه.

كان يلعن بابوج الحدّار ذا النعلين.

- لن يصمد طويلاً... سيحضره لي في الأسبوع القادم ما أن ينهي جولته، وسنرجع نعيد من أول وجديد... ترقيع القديم بأقدم منه لم يعطِ يوماً نتيجة... ماشي الحال... كل شيء له عمر... أعطني المبرد... من هناك، وراءك، ومن بعد إذنك، ضع هاتين

الصرمايتين الفرداويتين في الصندوق... لا أعرف بعد كيف أستطيع أن أستفيد منهما...

نفض مريوله وفرز مساميره وضب أدواته وابتسم لي.

- إذاً... بكره...؟

- نعم.

- ستتركنا وتسافر...

- لفترة قصيرة...

- لن نعد نراك...

- طبعاً ستراني... سأعود بعد سنتين أو ثلاث بشهادة جديدة.

- جدك وعد زوجته الوعد نفسه يوم سافر إلى المكسيك... كان ذلك قبل الحرب... ولم يزل هناك.

نهضت ومددت له يدي:

- كنت أتمنى أن أمضي معك اليوم وقتاً أطول. لكن مازال عندي ثلاث زيارات وأنا أصلاً متأخر...

- على مهلك، على مهلك... أنت شاب والحياة كلها أمامك. أما أنا فلست سوى عجوز لم يعد يقدر حتى أن يستخدم أدواته... انتظر... ما زال عندي الكثير لأقوله لك... لكنّي لا أريد أن أُنغِّص عليك فرحتك بتوصياتي ونحيبي... صار عمرك ثمانية عشر عاماً وكنت دوماً تحلم بالـ... ماذا يُقال عندما يتمكن سجين من نشر قضبان سجنه؟

- الهرب...

- تماماً. كنت تحلم دوماً بالهرب. وقريباً ستصبح... هناك... عندهم...

تناول توراته من فوق الرف وفتحها على الصفحة المُشار إليها بقطعة جلد وقرأ آية من مزمور طالما تلاها لي : «***لا ترك الله قدمك تزل... ليحرسك من كل سوء...***»

كان في نظرته الكثير من الشجن والحيرة، ومن الطيبة والحنان أيضاً. أشاح بوجهه ليخفي دموعه ومسح عينيه بخرقة مردداً : «***لا ترك الله قدمك تزل...***»

- وداعاً يا عزّور.

- وداعاً يا بني... لن أسمعك تتلو عليّ نشيد الأناشيد والمزامير بعد اليوم. ولن يعد لي أحد أروي له قصة الإسكافي الذي وجد يوماً ثلاث ماسات كبيرة في بابوج... إيه ! هذا إذا عشنا...

- وداعاً يا عزّور.

- الله معك.

الفهرس

موسى عبادي

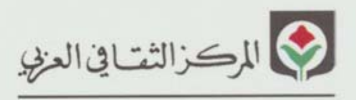
الملكة والخطّاط

ينتمي كتاب "الملكة والخطاط : يهود دمشق كما عرفتهم" إلى أدب القصة بيد أنه ينبض بروح الكركوزاتي الدمشقي. فالكاتب موسى عبادي ابن حارة اليهود الدمشقية، ولد فيها عام 1910 ونشأ في كنف عائلة مرموقة عميدها رئيس مجمع الطائفة.

يركز الكاتب على انخراط يهود حارته في البيئة الدمشقية من خلال قصص تدور أحداثها بين نهاية الحكم العثماني وبداية الانتداب الفرنسي. ويتناول عموماً مكانة اليهودي داخل المدينة، أو كيف يمكن لليهودي أن يمارس معتقداته وطقوس دينه من دون أن يكون معزولاً عن محيطه أو منبوذاً منه.

يتناول موسى عبادي هذه المسألة على طريقة موسى بن ميمون الذي ناقش التوراة استناداً إلى فلسفة الفارابي وأرسطو - مثلما ناقش مجايله ابن رشد القرآن - والذي آمن بالحضارة العربية الإسلامية لدرجة أنه أجاز لليهود الصلاة في الجامع، وذلك بصفته عالم دين ورئيساً للطائفة اليهودية في مصر.

ظل موسى عبادي مخلصاً لحارته ومدينته، بخلاف الكتّاب اليهود الذين يلعنون المدينة العربية أو يحنّون لها بلغة رثائية أخذوها عن غرب مسكون بهاجس المحرقة. فهو وإن يُسَلِّم بأن دمشقه لم تعد في دمشق، يقدم مدينته الأم كنموذج بديل عن المدينة الحديثة التي سادت العالم على أساس اقتلاع الفرد من جذوره وجعله أداة أو وظيفة في فضاء مُغْفَل.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma


ISBN 978-9953-68-481-2
9 789953 684819